الينابيع

الدكتورة غراء حسين مهنا

# السِّرُّ في البِئر

## وقصص أخرى








# السِّرُّ في البِئر
## وقصص أخرى

إشراف : وجدي رزق غالي



١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة ، مصر

مكتبة لبنان ناشرون

ص.ب : ٩٢٣٢-١١

بيروت - لبنان

وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم



الطبعة الأولى ٢٠١٣

رقم الايداع ٢٠١٣/١٩١٥٦

الترقيم الدولي ISBN ٩٧٨ - ٩٧٧ - ١٦ - ١٣٥٥ - ٨

رسوم : محمد نبيل عبد العزيز

طبع في مطابع النوبار ، القاهرة

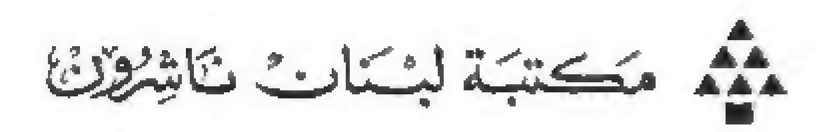



# السرُّ في البئرِ
## وقصص أخرى

الدكتورة غراء حسين مهنا





# البُطولَة

أَرادَ أَنْ يَكونَ بَطَلًا لِمَرَّةٍ واحِدَةٍ، فَلَقَدْ صَمَتَ طَويلًا وكَتَمَ شَهادَتَه كَثيرًا ونَدِمَ على ذَلِكَ. لَقَدْ كانَ يَخافُ دائِمًا.. يَخافُ مِنَ الظَّلامِ وهُوَ طِفْلٌ، ويَسْتَيْقِظُ فَزِعًا إذا انْقَطَعَتِ الكَهْرَباءُ.. يَخافُ مِمَّنْ هُمْ أَقْوى مِنْهُ أَوْ أَكْبَرُ مِنْهُ.. يَهْرُبُ مِنَ المُواجَهَة. ولَكِنَّهُ قَرَّرَ هَذِهِ المَرَّةَ أَنْ يَتَغَلَّبَ على خَوْفِهِ.. أَنْ يَتَكَلَّمَ.. أَنْ يَقولَ ما رَآهُ حَتّى لَوْ دَفَعَ حَياتَهُ ثَمَنًا لِشَهادَتِه.. أَرادَ أَنْ يَكونَ بَطَلًا ولَوْ مَرَّةً واحِدَةً.. يَتَحَدَّثُ عَنْهُ النّاسُ ويَذْكُرونَ شَجاعَتَهُ، ويُشيدونَ بِجُرْأَتِهِ وقُوَّتِه.

كانَ حَسَن يَعيشُ في قَرْيَةٍ نائِيَةٍ يَعيشُ النّاسُ فيها سُعَداء.

كانَ سُكّانُ القَرْيَةِ بُسَطاءَ لا يَمْلِكونَ الكَثيرَ ولَكِنَّهُمْ راضونَ بِما أَعْطاهُمُ اللهُ حَتّى لَوْ كانَ يَكْفي بِالكادِ لِسَدِّ جوعِهِمْ والوَفاءِ بِالْتِزاماتِهِمْ، فَهُمْ يَعيشونَ على زِراعَةِ ما يَحْتاجونَهُ

مِنْ طَعامٍ، ويَصْنَعونَ ما يَلْبَسونَهُ مِنْ ثِيابٍ وما يَسْتَخْدِمونَهُ مِنْ أَدَوات.

وذاتَ يَوْمٍ هَبَطَ إلى القَرْيَةِ لِصٌّ مُجْرِمٌ هارِبٌ مِنَ العَدالَة. ارْتَكَبَ الكَثيرَ مِنَ الجَرائِمِ، وأَرادَ أَنْ يَخْتَفي في هَذِهِ القَرْيَةِ النّائِيَةِ الَّتي لا يَصِلُ إلَيْها أَحَد.

بَدَأَتْ حَياةُ حَسَن تَتَغَيَّرُ، وبَدَأَ سُكّانُ القَرْيَةِ يَشْعُرونَ بِالخَوْفِ وعَدَمِ الأَمانِ. وبَدَأَتْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ حَوادِثُ السَّرِقَةِ والقَتْل. وكانَ النّاسُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ يُغْلقونَ مَنازِلَهُمْ عِنْدَ هُبوطِ اللَّيْلِ، ولا يُغادِرونَها لِأَيِّ سَبَبٍ مَهْما كان.

وشَعَرَ حَسَن بِالخَوْفِ على نَفْسِهِ وعلى أُسْرَتِه. كانَ الخَوْفُ يُلازِمُهُ مُنْذُ طُفولَتِهِ، فَكانَ النّاسُ يَتَنَدَّرونَ بِهَذا الخَوْفِ، فَهُوَ لا يَمُرُّ أَبَدًا بِالقُرْبِ مِنَ التُّرْعَةِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَظْهَرَ لَهُ مِنْ وَسَطِ الماءِ ما يَخْشاهُ. ويُحاوِلُ دائِمًا أَنْ لا يَكونَ وحيدًا فَيَصْحَبَ مَعَهُ أَحَدَ أَبْنائِهِ أَوْ جيرانِهِ أَوْ أَصْحابِهِ في سَيْرِهِ داخِلَ المَزارِعِ والحُقول. ويَعْتَقِدُ دائِمًا أَنَّ هُناكَ شَخْصًا يَتَتَبَّعُ خُطُواتِهِ ويَمْشي وَراءَهُ لِلنَّيْلِ مِنْهُ.

كانَ وُجودُ ذَلِكَ اللِّصِّ إذَنْ مَصْدَرًا لِلْخَوْفِ والقَلَقِ والفَزَعِ لِجَميعِ سُكّانِ القَرْيَةِ، ولِحَسَن بِصِفَةٍ خاصَّةٍ، فَأَصْبَحَ يَقْضي لَيْلَهُ مُسْتَيْقِظًا لا يَغْمُضُ لَهُ جَفْنٌ، ويَتَرَدَّدُ قَبْلَ الذَّهابِ صَباحًا إلى حَقْلِهِ فَيَدَّعي أَحْيانًا المَرَضَ، أَوْ أَنَّ الطَّقْسَ حارٌّ، وأَنَّ صِحَّتَهُ لا تَحْتَمِلُ الذَّهابَ إلى الحَقْلِ؛ فَهُوَ يَشْعُرُ بِالغَثَيانِ ويَرْتَجِفُ جَسَدُهُ.

وكانَ لِحَسَن جارٌ مُسِنٌّ اسْمُهُ الشَّيْخُ وَهْدان، يَعيشُ وَحيدًا بَعْدَ وَفاةِ زَوْجَتِهِ الَّتي لَمْ تُنْجِبْ لَهُ أَوْلادًا وكانَ يَزْرَعُ حَقْلَهُ بِنَفْسِهِ، ويَذْهَبُ مُنْذُ شُروقِ الشَّمْسِ على حِمارِهِ إلى السّوقِ لِشِراءِ احْتِياجاتِهِ مِنْ طَعامٍ وشَرابٍ ثُمَّ يَذْهَبُ إلى الحَقْلِ ويَظَلُّ يَعْمَلُ بِهِ حَتّى حُلولِ المَساءِ، فَيَرْكَبُ حِمارَهُ مَرَّةً أُخْرى لِلْعَوْدَةِ لِمَنْزِلِهِ. وكانَ هَذا الحِمارُ هُوَ الصَّديقَ الوَحيدَ لِلشَّيْخِ وَهْدان يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ في تَنَقُّلاتِهِ؛ فَهُوَ رَجُلٌ كَبيرُ السِّنِّ لا يَسْتَطيعُ الذَّهابَ إلَى السُّوقِ أَوِ الحَقْلِ إلّا راكِبًا.

انْتَشَرَ في القَرْيَةِ السَّلْبُ والنَّهْبُ، وعَمَّ الخَوْفُ والحُزْنُ،

فلا أَحَدٌ يَسْتَطيعُ أَنْ يُمْسِكَ بِهَذا اللِّصّ.

وذاتَ لَيْلَةٍ، كانَ حَسَن ساهِرًا في مَنْزِلِهِ بَعْدَ أَنْ نامَ الجَميعُ، فَهُوَ لا يَغْمُضُ لَهُ جَفْنٌ مِنَ الخَوْفِ. وسَمِعَ حَرَكَةً في مَنْزِلِ جارِهِ الشَّيخِ وَهْدان، فَنَظَرَ مِنَ النّافِذَةِ وَرَأى اللِّصَّ يَسْرِقُ الحِمار. شَعَرَ حَسَن بِالعَرَقِ يَتَصَبَّبُ على جَسَدِهِ، وارْتَعَدَتْ أَطْرافُهُ، وأَغْلَقَ النّافِذَةِ وجَلَسَ شارِدًا ساهِمًا حَتّى سَمِعَ مَعَ أولى نَسَماتِ الفَجْرِ صُراخَ الشَّيخِ وَهْدان عِنْدَ اكْتِشافِهِ سَرِقَةَ الحِمار.

تَظاهَرَ حَسَن بِالنَّوْمِ حينَ جاءَتْ زَوْجَتُهُ وأَبْناؤُهُ لِيَقُصّوا عَلَيْهِ ما حَدَث. كَما تَظاهَرَ بِالدَّهْشَةِ عِنْدَما أَخْبَرَهُ الشَّيْخُ وَهْدان بِسَرِقَةِ الحِمارِ، وصَمَتَ ولَمْ يُخْبِرْ أَحَدًا بِما رآهُ تِلْكَ اللَّيْلَة.

كانَ حَسَن يَرى الشَّيْخَ وَهْدان في طَرِيقِهِ إلى السّوقِ ماشِيًا يَتَرَنَّحُ مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ، ثُمَّ يَراهُ ذاهِبًا إلى الحَقْل يَمْشي بِصُعوبَةٍ، يَسْتَريحُ أَحْيانًا، ثُمَّ يُكْمِلُ طَرِيقَهُ بِمَشَقَّةٍ، ولا يَقولُ شَيْئًا.

كَثُرَتْ حَوادِثُ السَّرِقَةِ والنَّهْبِ حَتّى اضْطُرَّ سُكّانُ القَرْيَةِ إلى الاسْتِعانَةِ بِرِجالِ الأَمْنِ. أَرْسَلوا الرَّسائِلَ، وكَتَبوا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، ولَكِنْ لَمْ يَرُدَّ أَحَدٌ عَلَيْهِمْ، فَهُمْ يَعيشونَ في قَرْيَةٍ نائِيَةٍ بَعيدَةٍ عَنِ العُمْرانِ لا يَشْعُرُ بِهِمْ أَحَدٌ ولا يَهْتَمُّ بِحالِهِمْ.

لَمْ يَسْتَطِعْ حَسَن أَنْ يَحْتَمِلَ ما يَحْدُثُ في قَرْيَتِهِ، فاتَّفَقَ مَعَ بَعْضِ رِجالِ القَرْيَةِ على الذَّهابِ إلى العاصِمَةِ لإِبْلاغِ المَسْؤولينَ وطَلَبِ المُساعَدَة. رَحَّبَ الجَميعُ بِهَذِهِ الفِكْرَةِ.

وبَعْدَ رَحيلِهِمْ أَخَذَ النّاسُ يَتَرَقَّبونَ عَوْدَتَهُمْ في قَلَقٍ وأَمَلٍ.

وذاتَ صَباحٍ عادوا وبِصُحْبَتِهِمْ رِجالُ الأَمْنِ وَسْطَ هُتافاتِ النّاسِ وَزَغاريدِهِمْ. وبَدَأَ المُحَقِّقُ يَتَلَقّى الشَّكاوى ولَكِنْ لا يَأْتي أَحَدٌ لِلإِبْلاغِ أَوِ الشَّكْوى.. الجَميعُ يَهابونَ اللِّصَّ ويَخافونَ مِن إيذائِهِ لَهُمْ.

لَمْ يَكُفَّ حَسَن عَنِ التَّفْكيرِ فيما حَدَثَ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ.. سَيَذْهَبُ لِيَشْهَدَ بِما رَآهُ، فَلابُدَّ أَنْ يَبْدَأَ أَحَدٌ بِالشَّهادَةِ حَتّى يَتَشَجَّعَ الآخَرون.. سَيَكونُ بَطَلًا لِلْمَرَّةِ الأُولى في حياتِهِ.. سَيَتَغَلَّبُ على خَوْفِهِ.. سَيَشْهَدُ بِما رَأى حَتّى لَوْ كانَتْ حَياتُهُ

ثَمَنًا لِذَلِكَ.

اسْتَيْقَظَ حَسَن وهُوَ يَشْعُرُ أَنَّهُ إنْسانٌ آخَرُ يولَدُ مِنْ جَديدٍ، وأَخَذَ يَصيحُ وهُوَ في طَريقِهِ إلى قاضي التَّحقيقِ:

«أَنا ذاهِبٌ لِلشَّهادَةِ، سَأَقولُ الحَقيقَةَ.. اللِّصُّ سَرَقَ حِمارَ الشَّيْخِ وَهْدان.. لا تَخْشَوْا قَوْلَ الحَقيقَةِ حَتّى يَعودَ الأَمانُ لِقَرْيَتِنا.»

ظَلَّ حَسَن يُرَدِّدُ هَذِهِ العِباراتِ حَتّى ظَهَرَ لَهُ فَجْأَةً مِنْ بَيْنِ النّاسِ اللِّصُّ الَّذي رَآهُ يَسْرِقُ يَنْظُرُ إلَيْه بِعَيْنَيْنِ جامِدَتَيْنِ فيهِما الكَثيرُ مِنَ التَّهْديدِ والوَعيدِ. كادَ قَلْبُ حَسَن يَتَوَقَّفُ، وتَرَدَّدَ لِلَحَظاتٍ، وكادَ يَعودُ مِنْ حَيْثُ أَتى، ولَكِنْ سَرْعانَ ما اسْتَجْمَعَ شَجاعَتَهُ وأَكْمَلَ طَريقَهُ وهُوَ يُكَرِّرُ نَفْسَ العِباراتِ:

«أَنا ذاهِبٌ لِلشَّهادَةِ.. سَأَقولُ الحَقيقَةَ.. اللِّصُّ سَرَقَ حِمارَ الشَّيْخِ وَهْدان.. لا تَخْشَوْا قَوْلَ الحَقيقَةِ حَتّى يَعودَ الأَمانُ إلى قَرْيَتِنا.»

بَدَأَ النّاسُ يَتَكاثَرونَ وَراءَ حَسَن.. كُلُّ مَنْ رَأى وسَمِعَ..

كُلُّ مَنْ لَهُ شَهادَةٌ أَنْ يَقول.. ولا يَخْشى في الحَقِّ شَيْئًا.. شَجَّعَتْهُمْ جُرْأَةُ حَسَن وتَغَلَّبوا على خَوْفِهِمْ. وبَدَأَ الواحِدُ تِلْوَ الآخرِ يَحْكي لِقاضي التَّحْقيق ما رَأى وما سَمِعَ ويُقَدِّمون الأدِلَّةَ والبَراهينَ حَتّى تَجَمَّعَ مِنْها ما يَكْفي لِلْقَبْضِ على اللِّصّ.

وكانَ يَوْمُ رَحيلِ رجالِ الأَمْنِ عَنِ القَرْيَةِ وهُمْ يَقودونَ اللِّصَّ مُكَبَّلًا بِالأَغْلالِ يَوْمًا مَشْهودًا حَمَلَ فيهِ رِجالُ القَرْيَةِ حَسَن على الأَعْناق.. وبَدَأَتِ الأغاني والموسيقى والرَّقْصُ واسْتَمَرَّتْ حَتّى صَباحِ اليَوْمِ التّالي. وأَصْبَحَ حَسَن بَطَلًا لِلْمَرَّةِ الأولى في حَياتِهِ، ولَكِنَّها لَمْ تَكُنِ الأخيرَة.

# الصَّرْخَة

صَرْخَةٌ شَقَّتْ سُكونَ اللّيْلِ، أَفزَعَتِ النّاسَ في هَذِهِ البَلْدَةِ الصَّغيرَةِ على ضِفافِ النّيلِ. صَرْخَةٌ فيها أَنينٌ وأَلَمٌ وَفزَعٌ وخَوْفٌ. صَرْخَةٌ لا يَدْري أَحَدٌ مَنَ أَطْلَقَها. هَلْ هِيَ صَرْخَةُ إِنْسانٍ بائِسٍ أَمْ حَيَوانٍ مُتَأَلِّم؟

صَرْخَةٌ جعَلَتِ النَّوْمَ يَهْرُبُ مِنْ عُيونِ النّاسِ، وجَعَلَتْ قُلوبَهُمْ تَدُقُّ بِعُنْف. وتَكَرَّرَتْ هَذِهِ الصَّرْخَةُ في اليَوْمِ التّالي والشَّهْرِ التّالي والعامِ التّالي، ولا يَعْرِفُ أَحَدٌ مَصْدَرَها أَوْ مَنْ صاحِبُها. اعْتادَ النّاسُ على سَماعِها، وبَحَثوا كَثيرًا عَنْ مَصْدَرِها ولَكِنْ دونَ جَدْوى. وكَثُرَتِ الحِكاياتُ عَنْها، كُلُّ واحِدٍ يَقولُ إِنَّهُ يَمْتَلِكُ الحَقيقَةَ، وإِنَّهُ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ عَنْها حَتّى ضاعَتِ الحَقيقَةُ وضاعَ سِرُّ الصَّرْخَةِ.

تَعَدَّدَتِ الرِّواياتُ، فَقالوا إِنَّها لِشَخْصٍ فَقَدَ عَقْلَهُ

مَحْبوسٍ في مَكانٍ ما لا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ.. وقالوا إِنَّها لِحَيوانٍ جَريحٍ وَقَعَ في فَخٍّ أَوْ بِئْرٍ عَميقَةٍ.. قَدْ يَكونُ كَلْبًا أَوْ قِطًّا.

وقالوا إِنَّهُ طِفْلٌ فَقَدَ أَهْلَهُ وذويهِ ويَخافُ مِنَ الوَحْدَةِ.. وقالوا إِنَّها صَرْخَةُ حاكِمٍ أَوْ مَسْؤولٍ نَدِمَ على ما فَعَلَ وما ارْتَكَبَ مِنْ ذُنوبٍ ومَعاصٍ.. وقالوا.. ولَكِنَّ الحَقيقَةَ سَأَقُصُّها عَلَيْكُمْ فَأَنا وَحْدي أَعْرِفُها.

كانَ زيدان سُلْطانًا عَظيمًا لَدَيْهِ مِنَ المالِ الكَثيرُ ومِنَ الخَيْرِ الوَفير.. يَمْتَلِكُ كُلَّ شَيْءٍ، ولَكِنَّهُ يَحْكُمُ بِالحَديدِ والنّار.. لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ مُعارَضَتَهُ؛ فالجَميعُ يُنافِقونَهُ ويُطيعونَهُ.

جاءَ إِلَيْهِ ذاتَ يَوْمٍ فَلّاحٌ حَقيرٌ يَشْكو ارْتِفاعَ الضَّرائِبِ الَّتي يَجْمَعُها رِجالُ زيدان بِالقُوَّةِ من مالِكِي الأَرْضِ سواءٌ الأَثْرياءُ أَوِ الفُقَراءُ الَّذين لا يَجِدونَ قوتَهُمْ ولا لُقْمَةَ يَوْمِهِمْ.

وكانَ هَذا الفَلّاحُ مِنْ هَؤُلاءِ الفُقَراءِ الَّذينَ يَعيشونَ في فاقَةٍ، فَهُوَ يَمْتَلِكُ بِضْعَةَ قَراريطَ تَكادُ تَسُدُّ جوعَ عائِلَتِهِ المُكَوَّنَةِ مِنْ والِدَيْهِ المُسَنَّيْنِ وزَوْجَتِه وأَوْلادِهِ الخَمْسَة.

طَلَبَ الفَلّاحُ مُقابَلَةَ زيدان السُّلْطانِ لِيَشْكُوَ لَهُ حالَهُ، ولَكِنَّهُ رَفَضَ مُقابَلَتَهُ.. جاءَ مَرَّةً ومَرّاتٍ.. عِنْدَما يَئِسَ تَشاجَرَ مَعَ الحَرَسِ ودَخَلَ بِالقُوَّةِ إلى القَصْرِ.

وَجَدَ الفَلّاحُ نَفْسَهُ أَمامَ زيدان، وقَبْلَ أَنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ كانَ السُّلْطانُ يَأْمُرُ الحُرّاسَ بِرَمْيِهِ في السِّجْنِ دونَ أَنْ يَسْتَمِعَ إلى شَكْواهُ، والفَلّاحُ يَصْرُخُ مِنْ أَيْنَ يَأْكُلُ أَوْلادي؟ ومَنْ يَعْتَني بِوالِدَيَّ؟ يا ظالِم.. يا ظالِم!

وماتَ الفَلّاحُ في السِّجْنِ وهُوَ يَصْرُخُ.. ويَصْرُخُ.

وفي يَوْمٍ آخَرَ جاءَهُ تاجِرٌ يَشْكو اعْتِداءَ رِجال زيدان عَلَيْهِ ونَهْبَ تِجارَتِهِ وأَخْذَها عَنْوَةً دونَ دَفْعِ ثَمَنِها.. فأَمَرَ زيدان بِتَحْطيمِ دُكّانِهِ وأَخْذِ كُلِّ ما بِهِ مِنْ مالٍ وبِضاعَةٍ وطَرْدِهِ خارِجَ البِلاد.

وظَلَّ التّاجِرُ يَصْرُخُ مِنَ الظُّلْمِ وهُوَ في طَريقِهِ خارِجَ البِلادِ حَتّى اخْتَفى عَنِ الأَنْظار.

وكانَ ابنُ زيدان الأَوَّلَ في مَدْرَسَتِهِ، بِالرَّغْمِ مِنْ كَوْنِهِ

فاشِلًا في كُلِّ شَيْءٍ، فاشِلًا في دِراسَتِهِ، فاسِدًا في أَخْلاقِهِ، مُدَلَّلًا، يَخْشاهُ الجَميع. وفي يَوْمٍ أَعْجَبَتْهُ لُعْبَةٌ في يَدِ تِلْميذٍ آخَرَ صَنَعَها لِنَفْسِهِ، فَأَخَذَها مِنْهُ بِالقُوَّةِ وهُوَ الَّذي يَمْتَلِكُ العَشَراتِ، بَلِ المِئاتِ مِنَ اللُّعَبِ. وعِنْدَما أَرادَ زَميلُهُ اسْتِعادَةَ لُعْبَتِهِ ضَرَبَهُ بِقُوَّةٍ فَدافَعَ التِّلْميذُ عَنْ نَفْسِهِ ولَقَّنَ ابْنَ زيدان دَرْسًا لا يُنْسى.. وفي اللَّيْلِ داهَمَ الحَرَسُ مَنْزِلَ التِّلْميذِ وأُسْرَتِهِ وأَخَذوهُ مِنْ بَيْنِهِمْ، ولَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ حَتّى الآنَ أَيْنَ هُوَ.. وظَلَّتْ والِدَتُهُ تَصْرُخُ شَوْقًا إلى طِفْلِها وأَلَمًا على فِراقِه.

وعِنْدَما جَلَسَتْ مَجْموعَةٌ مِنَ الأَصْدِقاءِ على مَقْهًى يَتَسامَرونَ ويَتَحَدَّثونَ فيما آلَتْ إِلَيْهِ أَحْوالُ البِلادِ مِنْ فَسادٍ وظُلْمٍ وقَمْعٍ، ويُحاوِلونَ الوُصولَ إلى طَريقِ الخَلاصِ.

سَمِعَهُمْ أَحَدُ جَواسيسِ السُّلْطانِ زيدان. وما زالَ صَوْتُ صَرَخاتِهِمْ، وأَنينُهُمْ مِنَ التَّعْذيبِ الَّذي تَعَرَّضوا لَهُ يُدَوّي في الآذان.

سَيَقولُ لي، أَيُّها القارِئُ العَزيزُ، إِنَّكَ عَرَفْتَ سِرَّ

الصَّرْخَةِ، وإنَّها قَدْ تكونُ صَرْخَةَ الفَلّاحِ أَوِ التّاجِرِ أَو التِّلْميذِ أَوِ الأَصْدِقاءِ.. ولَكِنَّ الحَقيقَةَ تَخْتَلِفُ عَنْ ما تَوقَّعْتَهُ.. إنَّها صَرْخَةُ السُّلْطانِ زيدان!

فَلَقَدِ اسْتَمَرَّ في الظُّلْمِ والطُّغْيانِ والبَطْشِ بِالرَّعِيَّةِ وكَثُرَتْ صَرَخاتُ النّاسِ حَتّى إنَّها كانَتْ تُطارِدُهُ في صَحْوِهِ ومَنامِهِ، يَسْمَعُها في الصَّباحِ والمَساءِ، في خارِجِ القَصْرِ وداخِلِهِ، في كُلِّ مَكانٍ وزَمان، حَتّى أَفْقَدَتْهُ صَوابَهُ وأُصيبَ بِمَرَضٍ عَقْلِيٍّ وظَلَّ يَصْرُخُ.. يَصْرُخُ هَذِهِ الصَّرْخَةَ الَّتي نَسْمَعُها، والَّتي اسْتَمَرَّتْ في الآذانِ حتّى بَعْد مَوْتِ السُّلْطانِ زيدان.

# إِنْسان

اسْمُهُ إِنْسان ويَعيشُ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ. وهُوَ رَجُلٌ عادِيٌّ، بَسيطٌ، قَضى عُمْرَهُ يَعْمَلُ بِجِدٍّ ونَشاطٍ ويَجْتَهِدُ حَتّى وَصَلَ إِلى أَعْلى المَناصِب. وفي غَمْرَةِ كُلِّ ذَلِكَ نَسِيَ نَفْسَهُ ومَرَّ الزَّمَنُ، وأُحيلَ إِلى المَعاشِ، وتُوُفِّيَتْ زَوْجَتُهُ وتَزَوَّجَ أَبْناؤُهُ وانْشَغَلوا بِمُتَطَلَّباتِ الحَياة.

كانَ وَحيدًا، وكانَتْ مُتْعَتُهُ الوَحيدَةُ هِيَ الجُلوسَ أَمامَ النّافِذَةِ الكَبيرَةِ الَّتي تُطِلُّ على الشّارِعِ الرَّئيسِيِّ، فَهِيَ صِلَتُهُ الوَحيدَةُ بِالعالَمِ الخارِجِيِّ، يَرى مِنْها ما يَحْدُثُ في الشّارِعِ المُزْدَحِمِ؛ إِذِ البائِعونَ وزَبائِنُهُم المارَّةُ، الأَطْفالُ الذّاهِبونَ إِلى مَدارِسِهِمْ، العُمّالُ وهُمْ يَبْنونَ البِنايَةَ المُجاوِرَة.. يَجْلِسُ بِالسّاعاتِ لِيَرى ويَتَخَيَّلَ الأَحاديثَ الَّتي تَدورُ والعِباراتِ المُتَبادَلَة.

ولَكِنْ مَعَ مُرورِ الوَقْتِ أَصابَهُ المَلَلُ فَقَرَّرَ شِراءَ مِذْياعٍ أَصْبَحَ هُوَ ونيسَهُ وصِلَتَهُ بِالعالَمِ الخارِجِيِّ يَسْتَمِعُ فيهِ لِما يَدورُ في بَلَدِهِ وخارِجِهِ، بَلْ في العالَمِ كُلِّهِ، ولا يَقْتَصِرُ الأَمْرُ على ما يَحْدُثُ في الشّارِعِ الَّذي تُطِلُّ عَلَيْهِ نافِذَتُهُ.

مَضَتِ الأَيّامُ والشُّهورُ وهُوَ يَسْتَمِعُ تارَةً إلى مُبارَياتِ الكُرَةِ ويَتَخَيَّلُ وُجودَهُ في المَلْعَبِ وتَعْليقَهُ على ما يَحْدُثُ، ويَسْتَمِعُ تارَةً أُخْرى إلى الأَحْداثِ السِّياسِيَّةِ والاقْتِصادِيَّةِ والاجْتِماعِيَّةِ والأَدَبِيَّةِ والثَّقافِيَّةِ.. عَرَفَ الكَثيرَ وتَعَلَّمَ الكَثير.. ولَكِنْ بَعْدَ فَتْرَةٍ أَصابَهُ المَلَل.

وذاتَ يَوْمٍ قَرَّرَ شِراءَ تِليفِزيون. وكانَ سَعيدًا جِدًّا بِذَلِكَ، فَهُوَ يَكْتَفي بِسَماعِ ما يَحْدُثُ حَوْلَهُ في هَذا العالَمِ المُحيطِ بِهِ والعالَمِ الخارِجِيِّ، ولَكِنْ سَيَرى بِالصَّوتِ والصّورَةِ ما يَحْدُثُ في نَفْسِ اللَّحْظَةِ: حَرْبٌ هُنا وفَيَضانٌ هُناك، ثَوْرَةٌ هُنا وانْقِلابٌ هُناك، أَزْمَةٌ اقْتِصادِيَّةٌ طاحِنَةٌ وأَلاعيبُ سِياسِيَّةٌ، ولَكِنْ أَيْضًا أَحْداثٌ ثَقافِيَّةٌ وسِياسِيَّةٌ، وبَدا لَهُ

أَنَّ العالَمَ قَريبٌ جِدًّا مِنْ بَعْضِهِ، شَديدُ الصِّلَةِ بِهِ، وعَرَفَ الكَثيرَ وتَعَلَّمَ الكَثير. ولَكِنْ بَعْدَ فَتْرَةٍ أَدْرَكَهُ المَلَلُ؛ فَهُوَ لا يَتَحَرَّكُ مِنْ مَكانِهِ، ولَكِنَّهُ يَقْضي السّاعاتِ على مَقْعَدِهِ يَرى ويُشاهِدُ ويَسْتَمِعُ. وأَصابَهُ المَلَلُ مَرَّةً أُخْرى، وقَرَّرَ أَنْ يُسافِرَ لِرُؤْيَةِ هَذِهِ الأَماكِنِ الَّتي شاهَدَها على شاشَةِ التِّلفِزيون.

وسافَرَ بِالطّائِرَةِ إلى أَماكِنَ كَثيرَةٍ في العالَم.. رَأى وشاهَدَ وتَعَلَّمَ وعَرَفَ الكَثير.. ولَكِنَّهُ تَعِبَ مِنَ السَّفَرِ والتَّنَقُّلِ بَيْنَ المَطارات.. فالرِّحْلات كانَتْ طَويلَةً أَحْيانًا، وشاقَّةً أَحْيانًا أُخْرى.. وأَصابَهُ المَلَل.

عادَ إلى مَنْزِلِهِ، وقَرَّرَ في هذِهِ المَرَّةِ شِراءَ جِهازِ كُمْبيوتَر. وعادَ لِيَقْضيَ السّاعاتِ أَمامَ شاشَتِهِ، يَتَّصِلُ بِآخَرينَ ويَتَسامَرُ مَعَهُمْ. أَصْبَحَ لَهُ أَصْدِقاءُ كَثيرونَ في أَنْحاءِ العالَم. وعادَ يَسْمَعُ ويَرى ويُشاهِدُ ويَعْرِفُ ويَتَعَلَّم. كُلُّ شَيْءٍ يَصِلُهُ في حينِهِ، وحَرْبٌ هُنا وانْقِلابٌ هُناكَ، ثَوْرَةٌ هُنا وزِلْزالٌ هُناكَ، إِرْهابٌ وبَلْطَجَةٌ، اكْتِشافاتٌ، أَزَماتٌ، حَوادِثُ، انْهِياراتٌ، سَرِقاتٌ، فَسادٌ.. وفي هَذِهِ المَرَّةِ أَصابَهُ المَلَلُ والاكْتِئابُ

أَيْضًا.. لَمْ يَعُدْ يَسَمَعُ خَبَرًا يُفْرِحُهُ أَوْ يُطَمْئِنُ قَلْبَهُ.

وعادَ إلى نافِذَةِ مَنْزِلِهِ الَّتي تُطِلُّ على الشّارِعِ الرَّئيسِيِّ المُزْدَحِمِ لِيَرى أَنَّ الحَياةَ مُسْتَمِرَّةٌ: بَيْعٌ وشِراءٌ، وأَطْفالٌ ذاهِبونَ إلى مَدارِسِهِمْ، وعُمّالٌ يَبْنونَ وأَمَلٌ في مُسْتَقْبَلٍ رُبَّما يَكونُ أَفْضَل. هَكَذا الإِنْسان.. وهَكَذا الحَياة.

# السِّرُّ في البِئر

لَعَلَّكَ سَمِعْتَ هَذِهِ العِبارَةَ مِنْ قَبْلُ «السِّرّ في بير»، وهِيَ تَعْني أَنَّ السِّرَّ مَحْفوظٌ لا يُمْكِنُ إفْشاؤُهُ، ولَكِنَّ المَعْنى يَخْتَلِفُ في هِذِهِ الحِكايَةِ الَّتي أَقُصُّها عَلَيْكُمْ:

إِذا اقْتَرَبَ أَحَدُكُمْ مِنَ البِئْرِ المَوْجودَةِ في مَدْخَلِ هَذِهِ البَلْدَةِ سَيَسْمَعُ أَصْواتًا وضَجيجًا، وإذا اقْتَرَبَ أَكْثَرَ لِيَشْرَبَ مِنْ ماءِ البِئْرِ سَيَسْمَعُ بِشَكْلٍ أَفْضَلَ وسَيَتَبَيَّنُ بِوُضوحٍ ما تَقولُهُ هَذِهِ الأَصْواتُ الَّتي تَصْدُرُ مِنْها، وسَيَسْتَمِعُ إلى حِكايَةٍ وحِكاياتٍ مَدْفونَةٍ في هَذِهِ البِئْرِ، ولَكِنْ لا يَحْفَظُها ولا يَكْتُمُ السِّرَّ، ولَكِنَّهُ يَقُصُّها على كُلِّ مَنْ يَقْتَرِبُ مِنْهُ.

## الحِكايَةُ الأُولى

يُحْكى أَنَّهُ في قَديمِ الزَّمانِ كانَ يَعيشُ مَلِكٌ يُحِبُّهُ النّاسُ ويُقَدِّرونَهُ، فَهُوَ يَسْتَمِعُ إلى شَكاواهُمْ، يُنْصِفُ المَظْلومَ ويُعاقِبُ الظّالِمَ، يَنْصُرُ الضَّعيفَ، ويَحْتَرِمُ الرَّأيَ الآخَر.

كانَ بَشوشًا، ضاحِكًا، يَفْتَحُ أَبْوابَ قَصْرِهِ لِلْجَميعِ دونَ تَفْرِقَةٍ، يَقْضي يَوْمَهُ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ ويُحاوِلُ حَلَّ مَشاكِلِهِمْ.

وكانَ لِهَذا المَلِكِ وَزيرٌ مُخْلِصٌ، يُسْدي لَهُ النُّصْحَ، يَقِفُ دائِمًا إلى جانِبِهِ، يُسانِدُهُ ويُعاوِنُهُ، يَنْصَحُهُ إِذا أَخْطَأَ، ويُصْدِقُهُ القَوْلَ.

وعاشَ النّاسُ في سَعادَةٍ ووِئامٍ وكَثُرَ الخَيْرُ وعَمَّ السَّلامُ والأَمْنُ، واسْتَمَرَّتِ الأُمورُ على ما يُرامُ لِسَنَواتٍ وسَنَواتٍ حَتّى جاءَ هَذا اليَوْمُ الَّذي قَلَبَ الأُمورَ رَأْسًا عَلَى عَقِب. أَقامَ المَلِكُ حَفْلًا كَبيرًا اسْتَمَرَّ ثَلاثَ لَيالٍ ودَعا إِلَيْهِ كُلَّ بَناتِ المَمْلَكَةِ اللّاتي في سِنِّ الزَّواجِ لِيَخْتارَ ابْنُهُ واحِدَةً

مِنْهُنَّ لِيَتَزَوَّجها.

وأَشْرَفَ الوَزيرُ على تَرْتيباتِ الحَفْلِ بِنَفْسِهِ لِيَكونَ كُلُّ شَيْءٍ في أَفْضَل حالٍ. وتَمَّ إِعْدادُ القَصْرِ لاسْتِقْبالِ الضُّيوفِ، وعُلِّقَتِ الزّيناتُ وأُضيئَتِ الأَنْوارُ، وأُقيمَتِ الوَلائِمُ مِنْ أَشْهَى وأَطْيَبِ أَنْواعِ الطَّعامِ، واسْتَعَدَّ الموسيقيّونَ والرّاقِصونَ والمُطْرِبونَ لِهَذا اليَوْمِ المَشْهودِ.

وكانَ لِلْوَزيرِ ابْنَةٌ جَميلَةٌ، ذاتُ جَمالٍ أَخّاذٍ، وذَوْقٍ رَفيعٍ، وعَقْلٍ سَديدٍ، ورَأْيٍ رَشيدٍ، واسْمُها على مُسمًّى: جَميلَة. ساعَدَتْ جَميلَة والِدَها في كُلِّ شَيْءٍ حَتّى يَكونَ الحَفْلُ لَمْ تَرَهُ عَيْنٌ مِنْ قَبْلُ ولا سَمِعَتْ بِهِ أُذُنٌ.

وفَرِحَ المَلِكُ بِكُلِّ ذَلِكَ وشَكَرَ الوَزيرَ المُخْلِصَ الَّذي صَرَّحَ لَهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْتَطيعُ أَنْ يَفْعَلَ وَحْدَهُ كُلَّ ذَلِك، وأَنَّهُ يَدينُ بِالفَضْلِ لابْنَتِهِ جَميلَة. طَلَبَ المَلِكُ رُؤْيَةَ جَميلَة لِيَشْكُرَها، ولَكِنَّهُ ما إِنْ وَقَعَ نَظَرُهُ عَلَيْها حَتّى بَهَرَهُ جَمالُها وسِحْرُها، وما إِنْ تَحَدَّثَ إِلَيْها حَتّى جَذَبَتْهُ رَجاحَةُ عَقْلِها وسَدادُ رَأْيِها، فَطَلَبَ يَدَها مِنْ والِدِها الوَزير.. لَيْسَ لابْنِه

كَما يَعْتَقِدونَ، ولَكِنْ لَهُ هُوَ.. نَعَمْ أَرادَ المَلِكُ أَنْ يَتَزَوَّجَ الفَتاةَ الصَّغيرَةَ الَّتي يَكْبُرُها بِعَشَراتِ السِّنين.

انْدَهَشَ الوَزيرُ مِنَ الطَّلَبِ، وطَلَبَ مُهْلَةً لِسُؤالِ ابْنَتِهِ فَغَضِبَ المَلِكُ غَضَبًا شَديدًا، ومُنْذُ تِلْكِ اللَّحْظَةِ اخْتَفى الوَزيرُ ولَمْ يُشاهِدْهُ أَحَدٌ في الحَفْلِ ولا في أَيِّ مَكانٍ بَعْدَ ذَلِكَ.

بَحَثَتْ جَميلَة عَنْ والِدِها في كُلِّ مَكانٍ، وَلَكِنَّها لَمْ تَعْثُرْ لَهُ على أَثَرٍ. ولَمّا فاتَحَها المَلِكُ فيما سَبَقَ أَنْ طَلَبَهُ مِنْ والِدِها، أَيْ في الزَّواجِ بِها، قَرَّرَتِ الرَّحيلَ وتَرْكَ البِلادِ في ظَلامِ اللَّيْلِ. وهَكَذا اخْتَفى الوَزيرُ وابْنَتُهُ عَنِ الأَنْظارِ.

واخْتارَ الأَميرُ عَروسَهُ مِنْ بَيْنِ المَدْعُوّاتِ. ومَرَّتِ السَّنَواتُ والأَيّامُ ورَزَقَهُ اللهُ بِالبَنينَ والبَناتِ.

تَقَدَّمَ المَلِكُ في السِّنِّ، وبَلَغَ مِنَ العُمْرِ أَرْذَلَهُ، ولَمْ يَعُدْ قادِرًا على الوَفاءِ بِاحْتِياجاتِ المَمْلَكَةِ والاسْتِمْرارِ في الحُكْمِ. لَكِنَّهُ رَفَضَ التَّنازُلَ لِابْنِهِ الأَميرِ وأَصَرَّ على أَنْ يَظَلَّ هُوَ المَلِكُ.. هُوَ وَحْدَهُ. وساءَتِ الأَحْوالُ وعَمَّتِ

الفَوْضى، وأَصْبَحَتِ البِلادُ في حاجَةٍ إلى حاكِمٍ قَوِيٍّ يُعيدُ الأَوْضاعَ إلى نِصابِها.

كانَ الأَميرُ حائِرًا لا يَدْري ماذا يَفْعَلُ، ولا ماذا يَقولُ، فَهُوَ يَدينُ بِالاحْتِرامِ والعِرْفانِ لِوالِدِهِ، ولَكِنَّهُ يَرى ما يَحْدُثُ في المَمْلَكَةِ مِنْ فَوْضى وفَسادٍ؛ لِذا قَرَّرَ أَنْ يُفاتِحَ والِدَهُ في الأَمْرِ.

انْتَهَزَ الأَميرُ فُرْصَةَ وُجودِ المَلِكِ بِمُفْرَدِهِ في غُرْفَتِهِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وتَحَدَّثا في شُؤونِ البِلادِ، وطَلَبَ الأَميرُ مِنَ المَلِكِ أَنْ يَتَنازَلَ لَهُ عَنِ العَرْشِ، ولَكِنَّهُ رَفَضَ رَفْضًا قاطِعًا وطَرَدَ ابْنَهُ مِنَ الحُجْرَةِ طالِبًا مِنْهُ أَنْ لا يَتَحَدَّثَ في هَذا الأَمْرِ مَرَّةً أُخْرى.

زادَتْ حَيْرَةُ الأَميرِ وخاصَّةً عِنْدَما ازْدادَتْ شَكاوَى النّاسِ ومُطالَبَتُهم لَهُ بِالتَّدَخُّلِ لِإِصْلاحِ أَحْوالِ البِلاد.

واضْطُرَّ الأَميرُ إلى أَنْ يَفْعَلَ ما لَمْ يَتَخَيَّلْ يَوْمًا أَنْ يَفْعَلَهُ، فَخَلَعَ والِدَهُ المَلِكَ الَّذي حاوَلَ اسْتِرْدادَ عَرْشِهِ، فما كانَ مِنَ الأَميرِ إلّا أَنْ أَمَرَ بِوَضْعِهِ في مَكانٍ أَمينٍ لا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ

حَتّى تَهْدَأَ الأُمورُ وتَسْتَقِرَّ. ولَكِنْ أَيْنَ يَتَحَفَّظونَ عَلَيْهِ؟

اقْتَرَبَ مِنْهُ أَحَدُ رِجالِ القَصْرِ وقالَ لَهُ إِنَّ تَحْتَ القَصْرِ غُرْفَةً سِرِّيَّةً لا يَعْرِفُ بِوُجودِها أَحَدٌ، وإِنَّهُ يَسْتَطيعُ أَنْ يَضَعَ فيها والِدَهُ وهُوَ مُطْمَئِنٌّ تَمامًا.

وافَقَ الأَميرُ على وَضْعِ والِدِهِ في هَذِهِ الغُرْفَةِ السِّرِّيَّةِ بِالقَصْرِ، وذَهَبَ بِنَفْسِهِ مَعَ والِدِهِ يُحاوِلُ أَنْ يُطَيِّبَ خاطِرَهُ ويُؤَكِّدَ لَهُ أَنَّ الأَمْرَ لَنْ يَدومَ، والمَلِكُ يَصْرُخُ قائِلًا:

«أَنْتَ وَلَدٌ عاقٌّ.. أَهَذا جَزائي؟ لَقَدْ كُنْتُ أَبًا حَنونًا مُخْلِصًا.. تَفانَيْتُ في إِسْعادِكَ وتَحْقيقِ رَغَباتِكَ.»

ظَلَّ المَلِكُ يُكَرِّرُ هَذا الكَلامَ حَتّى أَدْخَلوهُ الحُجْرَةَ المُظْلِمَةَ وأَغْلَقوا عَلَيْهِ البابَ وهُوَ يُكَرِّرُ نَفْسَ الكَلامِ.. وشَعَرَ بِحَرَكَةٍ فالْتَفَتَ وَراءَهُ ورَأى في ظَلامِ الغُرْفَةِ عَيْنَيْنِ تَلْمَعانِ وسَمِعَ صَوْتًا يَعْرِفُهُ جَيِّدًا يَقولُ لَهُ:

«هَذا ما فَعَلْتُهُ أَنا مَعَكَ.. لَقَدْ كُنْتُ مُخْلِصًا لَكَ..

تَفانَيْتُ أَنا أَيْضًا في إِسْعادِكَ وتَحْقيقِ رَغَباتِكِ فَحَبَسْتَني في هَذِهِ الغُرْفَةِ.»

لَقَدْ كانَ ذَلِكَ الشَّخْصُ هُوَ الوَزيرَ الَّذي اخْتَفى مُنْذُ سَنَواتٍ. ومُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ والبِئْرُ يُرَدِّدُ هَذِهِ القِصَّةَ كُلَّ يَوْمٍ.

# الحِكايَةُ الثّانِيَةُ

تَرَكَتْ جَميلَةَ البِلادَ مُنْذُ اخْتِفاءِ والِدِها الوَزيرِ، وظَلَّتْ هائِمَةً على وَجْهِها تَنْتَقِلُ مِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ حَتّى قابَلَتْ رَجُلًا صالِحًا قَصَّتْ عَلَيْهِ حِكايَتَها فَاتَّخَذَها ابْنَةً لَهُ، وعاشَتْ مَعَهُ في نَعيمٍ وسَعادَةٍ، فَهُوَ يُحْسِنُ مُعامَلَتَها ويُحِبُّها كَما لَوْ كانَتِ ابْنَتَهُ مِنْ صُلْبِهِ.

وبَعْدَ سَنَواتٍ تُوفِّيَ الرَّجُلُ الصّالِحُ تارِكًا لَها المالَ الوَفيرَ، فَقَدْ كانَ يَمْتَلِكُ ثَرْوَةً ضَخْمَةً، ولَمْ يَكُنْ لَهُ أَوْلادٌ، ولا عائِلَةٌ.

قَرَّرَتْ جَميلَةَ العَوْدَةَ إلى بِلادِها، فَتَنَكَّرَتْ في زِيِّ رَجُلٍ وأَخَذَتْ مَعَها مالَها مِنْ مالٍ ومَتاعٍ.

وعِنْدَ وصُولِها لَمْ تَكُنْ تَعْرِف أَيْنَ تَذْهَبُ ولا ماذا تَصْنَعُ، فَقَرَّرَتْ تَأْجيرَ غُرْفَةٍ في المَدينَةِ. وعِنْدَما اسْتَقَرَّ بِها الحالُ خَرَجَتْ هائِمَةً على وَجْهِها، ووَجَدَتْ نَفْسَها أَمامَ البِئْرِ العَجيبَةِ في مَدْخَلِ المَدينَةِ.

وعِنْدَما اقْتَرَبَتْ مِنْها سَمِعَتْ أَصْواتًا تَقولُ: «لَدَيْنا حِكاياتٌ كَثيرَةٌ وعَجيبَةٌ، عِظاتٌ ومَواعِظُ: حكايةُ كذا وكذا.. وحِكايَةُ المَلِكِ والوَزيرِ اللَّذَيْنِ تَوَفّاهُما اللهُ مَعًا في حُجْرَةٍ مُظْلِمَةٍ، أَحَدُهُما ظالِمٌ والآخَرُ مَظْلومٌ، ولَكِنْ فيها نِهايَتُهُما كانَتْ واحِدَةً.»

فَهِمَتْ جَميلَة أَنَّ المَقْصودَ بِهَذِهِ الحِكايَةِ أَبوها الوَزيرُ والمَلِكُ الَّذي حَبَسَهُ، فَأَخَذَتْ تَبْكي والبِئْرُ تَحْكي وتَحْكي حَتّى اسْتَوْقَفَتْها حِكايَةٌ تَقولُ:

«وبَعْدَ أَنْ حَكَمَ الأَميرُ البِلادَ رَأى حُلْمًا في نَوْمِهِ، وحاوَلَ تَفْسيرَهُ دونَ جَدْوى، فَلَجَأَ إلى العَرّافينَ والمُفَسِّرينَ وأَهْلِ العِلْمِ والرَّأْيِ، ولَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يُفَسِّرَهُ.. مَرِضَ الأَميرُ حُزْنًا على ذَلِكَ.. و..»

عادَتْ جَميلَة إلى حُجْرَتِها، وأَخَذَتْ تُفَكِّرُ فيما سَمِعَتْ وقَرَّرَتْ أَنْ تَذْهَبَ لِتَفْسيرِ هَذا الحُلْمِ، فَلَها مِنْ رَجاحَةِ العَقْلِ وسَدادِ الرَّأْيِ ما يُمَكِّنُها مِنْ تَفْسيرِهِ.



ذَهَبَتْ جَميلَةَ إلى القَصْرِ دونَ أَنْ تَتَنَكَّرَ في زِيِّ الرِّجالِ، وبِمُجَرَّدِ دُخولِ البَهْوِ المَلَكِيِّ سالَتِ الدُّموعُ مِنْ عَيْنَيْها، وتَذَكَّرَتْ آخِرَ يَوْمٍ لَها في هَذا القَصْرِ.. يَوْمَ الحَفْلَةِ الَّتي نَظَّمَتْها مَعَ والِدِها لِيَخْتارَ الأَميرُ عَروسَهُ، وأَخَذَتْ تَبْكي وتَبْكي.. وطَلَبَتْ رُؤْيَةَ الأَميرِ.

وعِنْدَما دَخَلَ الأَميرُ عَلَيْها تَذَكَّرَ أَنَّهُ رَآها مِنْ قَبْلُ، ولَكِنْ مَتى وأَيْنَ؟ وسَأَلَها: «مَنْ أَنْتِ؟ وماذا تُريدينَ؟»

«أَتَيْتُ مِنْ بَعيدٍ لأُفَسِّرَ لَكَ الحُلْمَ؟»

«هَلْ تَسْتَطيعينَ ذَلِكَ؟»

«نَعَمْ.. أُحاوِل..»

أَخَذَ الأَميرُ يَقُصُّ عَلَيْها الحُلْمَ، وهُوَ يَشْعُرُ أَنَّهُ يَعْرِفُها ورَآها مِنْ قَبْلُ. وحاوَلَ أَنْ يَتَذَكَّرَ.. وبَدَأَتْ هِيَ تَسْتَمِعُ إلى ما يَقولُ والدُّموعُ تُغْرِقُ عَيْنَيْها مِنْ شِدَّةِ التَّأَثُّرِ لِوُجودِها بِهذا المَكانِ الَّذي يَحْمِلُ الكَثيرَ مِنَ الذِّكْرَياتِ السَّعيدَةِ والمُؤْلِمَةِ في آنٍ واحِدٍ.

وبَدَأَ الأَميرُ قِصَّتَهُ على النَّحْوِ التّالي:

«رَأَيْتُ، فيما يَرى النّائِمُ، قَصْرًا رائِعًا أَعيشُ فيهِ، بِهِ مِنَ الخَدَمِ والحَشَمِ الكَثيرُ، ومِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ الوَفيرُ، ومِنَ الطَّعامِ الشَّهِيُّ، وأَرْتَدي الفاخِرَ مِنَ الثِّيابِ. وبَيْنَما أَنا جالِسٌ ذاتَ مَساءٍ في القَصْرِ حَزينٌ بِدونِ سَبَبٍ مُحَدَّدٍ لا أَشْعُرُ بِأَيِّ سَعادَةٍ بِالرَّغْمِ مِنْ مَظاهِرِ البَذَخِ والثَّراءِ، انْشَقَّ الحائِطُ عَنْ شَخْصٍ بَهِيِّ الصّورَةِ، جَميلِ الهَيْئَةِ بادَرَني بِالسَّلامِ، ثُمَّ قالَ لي:

«أَعْلَمُ أَنَّكَ حَزينٌ مَشْغولُ البالِ ولا تَعْرِفُ لِذَلِكَ سَبَبًا.. إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ السَّعادَةَ ولا راحَةَ البالِ إِلّا حينَما تَجِدُ الماءَ الَّذي لا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ ولا يَخْرُجُ مِنْ باطِنِ الأَرْضِ.. تَذَكَّرِ الماءَ الَّذي لا يَخْرُجُ مِنْ باطِنِ الأَرْضِ، ولا يَنْزِلُ مِنَ السَّماء.. تَذَكَّرْ.»

«واخْتَفى هَذا الشَّخْصُ كَما جاءَ، وأَنا أُحاوِلُ مُنْذُ هَذِهِ اللَّحْظَةِ أَنْ أَجِدَ تَفْسيرًا لِهَذِهِ العِبارَةِ.. أَنا لَمْ أَرْتَكِبْ إِثْمًا في حَياتي، وأَعْتَقِدُ أَنَّني حَكَمْتُ البِلادَ بِما يُرْضي اللهَ..

الذَّنْبُ الوَحيدُ الَّذي اقْتَرَفْتُهُ هُوَ حَبْسُ والِدي المَلِكِ في الغُرْفَةِ المُظْلِمَةِ.. ولَكِنْ كان ذَلِكَ لِمَصْلَحَةِ البِلادِ وأَهْلِها.. والوَزيرُ الَّذي.. الوَزيرُ الَّذي.. وابْنَتُهُ الَّتي.» لَمْ يُكْمِلِ الأَميرُ عِبارَتَهُ ونَظَرَ جَيِّدًا إلى الفَتاةِ الواقِفَةِ أَمامَهُ وأَخَذَ العَرَقُ يَتَصَبَّبُ مِنْ جَبينِهِ «.. جَميلَة.. اسْمُكِ جَميلَة.»

«أَعَرَفْتَني؟»

«وَجْهُكِ لا يُمْكِنُ نِسْيانُهُ بِسُهولَةٍ.»

«أَتُريدُ أَنْ تَعْرِفَ ما هُوَ الماءُ الَّذي لا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ ولا يَخْرُجُ مِنْ باطِنِ الأَرْضِ؟»

«أَرْجوكِ.. أُريدُ أَنْ أَعْرِفَ.»

«هُوَ هَذا العَرَقُ الَّذي يَتَصَبَّبُ مِنْ جِسْمِكَ، وهَذِهِ الدُّموعُ الَّتي تَراها في عَيْنَيَّ.. العَرَقُ النّاتِجُ عَنْ ما اقْتَرَفَهُ أَبوكَ في حَقّي وحَقِّ أَبي.. والدُّموعُ الَّتي أَغْسِلُ بِها آلامي وحُزْني على والِدي.»

«لَقَدْ تَخَلَّصْتُ مِنْ هَذا الذَّنْبِ الَّذي حَمَلْتُهُ على ظَهْري

سَنَواتٍ وأَنا غَيْرُ مَسْؤولٍ عَنْهُ.. تَخَلَّصْتُ مِنْهُ عِنْدَما رَأَيْتُكِ بِخَيْرٍ. كَيْفَ أُعَوِّضُكِ عَنْ ذَلِكَ.»

«لَقَدْ عَوَّضَني اللهُ بِالمالِ الوَفيرِ، وبِرَجُلٍ صالِحٍ حَلَّ مَحَلَّ والِدي وقامَ بِرِعايَتي حَتّى وَفاتِهِ.»

أَمَرَ الأَميرُ أَنْ تَنْتَقِلَ جَميلَةَ إِلى القَصْرِ في جَناحٍ خاصٍّ بِها لِيَرْعاها ويُوَفِّرَ لَها الحِمايَةَ والأَمْنَ.

ومُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ والبِئْرُ تُضيفُ حِكايَةً جَديدَةً إِلى حِكاياتِها.. حِكايَةَ الماءِ الَّذي لا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ ولا يَخْرُجُ مِنْ باطِنِ الأَرْضِ.. فالسِّرُّ في بير.

# أَلْوانُ الكَذِب

هَلِ الكَذِبُ أَلْوانٌ؟ هَلْ هُوَ أَحْمَرُ وأَسْوَدُ وأَخْضَرُ وأَصْفَرُ وأَبْيَضُ؟ هَلْ هُناكَ كَذِبٌ مَسْموحٌ وآخَرُ مَمْنوعٌ؟ هَلْ يَتَساوى الكَذِبُ مَهْما كانَ لَوْنُهُ؛ فَهُوْ في النِّهايَةِ كَذِبٌ.. كَذِبٌ فَقَطْ.. ولا شَيْءَ غَيْرُ ذَلِكَ؟

سَتُجيبُ القِصَّةُ الَّتي سَأَرْويها لَكُمْ عَنْ هَذا السُّؤالِ.. قِصَّةُ التّاجِرِ ووَلَدِهِ..

في بَلَدٍ مِنَ البُلْدانِ وفي زَمَنٍ مِنَ الأَزْمانِ عاشَ تاجِرٌ ثَرِيٌّ، كانَ يُسافِرُ لِبَيْعِ تِجارَتِهِ في المُدُنِ القَريبَةِ والبَعيدَةِ ويَعودُ مُحَمَّلًا بِالْبِضاعَةِ. رَزَقَ اللهُ هَذا التّاجِرَ طِفْلًا ذَكِيًّا جَميلًا، وعِنْدَما بَلَغَ العاشِرَةَ مِنْ عُمْرِهِ كانَ والِدُهُ يَصْطَحِبُهُ مَعَهُ في أَسْفارِهِ لِلتِّجارَةِ، لِيَتَعَلَّمَ أَسْرارَ المِهْنَةِ ويَكونَ عَوْنًا وسَنَدًا لَهُ.

وذاتَ يَوْمٍ، في رِحْلَةٍ مِنَ الرِّحْلاتِ، دَخَلا مَدينَةً لِيَقْضِيا فيها لَيْلَتَهُما. وفي الصَّباحِ وعِنْدَ مُغادَرَتِها، مَرّا على مَدْرَسَةٍ سَمِعا بِها أَصْواتًا غَريبَةً.. تَغْريدَ طُيورٍ.. فَدَخَلا لاسْتِطْلاعِ الأَمْرِ، وتَبَيَّنَ لَهُما أَنَّها مَدْرَسَةٌ يُديرُها شَيْخٌ مُسِنٌّ لِتَعْليمِ لُغَةِ الطُّيورِ.. أَرادَ الأَبُ أَنْ يَتَعَلَّمَ وَلَدُهُ هَذِهِ اللُّغَةَ، فَقَرَّرَ تَرْكَهُ في المَدْرَسَةِ على أَنْ يَأْخُذَهُ في طَريقِ عَوْدَتِهِ، ودَفَعَ نُقودَ التَّعْليمِ والإِقامَةِ لِلشَّيْخِ صاحِبِ المَدْرَسَةِ.

ودَّعَ الأَبُ ابْنَهُ وذَهَبَ في طَريقِهِ لِبَيْعِ تِجارَتِهِ.

باعَ التّاجِرُ بِضاعَتَهُ في مُدُنٍ كَثيرَةٍ وقَرَّرَ العَوْدَةَ لِيَأْخُذَ ابْنَهُ.. ولَكِنَّهُ ضَلَّ الطَّريقَ؛ فالمُدُنُ مُتَشابِهَةٌ وَالشَّوارِعُ مُتَماثِلَةٌ، وهُوَ لا يَدْري أَيْنَ المَدْرَسَةُ الَّتي تَرَكَ فيها وَلَدَهُ.

حاوَلَ التّاجِرُ العُثورَ على المَكانِ الَّذي تَقَعُ فيهِ المَدْرَسَةُ ولَكِنْ دونَ جَدْوى. ومَرَّ يَوْمٌ.. يَوْمانِ.. وأُسْبوع.. وأُسْبوعانِ، وكانَ قَدْ أَرْهَقَهُ البَحْثُ فَقَرَّرَ العَوْدَةَ.

وعِنْدَ وُصولِهِ إلى المَنْزِلِ اسْتَقْبَلَتْهُ زَوْجَتُهُ وسَأَلَتْهُ عَنِ الابْنِ، فَقالَ لها إِنَّهُ مَرِضَ وتَوَفّاهُ اللهُ في السَّفرِ. حَزِنَتِ

الزَّوْجَةُ حُزْنًا شَديدًا على وَلَدِها حَتّى كادَتْ تَفْقِدُ عَقْلَها.

وكانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ كِذْبَةٍ.. فَما لَوْنُها؟ أَهِيَ بَيْضاءُ؟ أَوْ سَوْداءُ؟ مَرَّتِ الأَيّامُ والشُّهورُ والسَّنَواتُ والتّاجِرُ يُسافِرُ ويَعودُ وفي كُلِّ مَرَّةٍ يَبْحَثُ ويَبْحَثُ ولا يَعْثُرُ على شَيْءٍ؛ فَلا أَثَرَ لِلْمَدْرَسَةِ ولا لِلصَّبِيّ.

وفي رِحْلَةٍ مِنَ الرِّحْلاتِ، وهُوَ في مَدينَةٍ مِنَ المُدُنِ وفي شارعٍ مِنَ الشَّوارعِ وبِجِوارِ مَدْرَسَةٍ مِنَ المَدارِسِ سَمِعَ تَغْريدَ طُيورٍ، فَدَخَلَ مُسْرِعًا واسْتَقْبَلَهُ شابٌّ يافِعٌ. سَأَلَ الأَبُ التّاجِرُ عَنْ صاحِبِ المَدْرَسَةِ، فَأَجابَهُ الشّابُّ



بِأَنَّهُ مَريضٌ ويَلزَمُ الفِراشَ، فَسَأَلَهُ الأَبُ:

«ومَنْ يُديرُ هَذِهِ المَدْرَسَةَ؟»

«أُديرُها أَنا.»

«هَلْ يُمْكِنُني رُؤْيَتُهُ؟»

«بِالطَّبْع.. اتْبَعْني، يا سَيِّدي.»

وفي مَنْزِلِ الشَّيْخِ سَأَلَ التّاجِرُ عَنِ ابْنِهِ، فَأَجابَهُ الشَّيْخُ:



«أَلَمْ تَتَعَرَّفْ عَلَيْهِ بَعْدُ، أَلَمْ تَتَعَرَّفْ على ابْنِكَ.. إِنَّهُ هَذا الشّابُّ اليافِعُ الواقِفُ بِجِوارِكَ.»

احْتَضَنَ التّاجِرُ ابْنَهُ ومَكَثَ مَعَهُ عِدَّةَ أَيّامٍ في ضِيافَةِ الشَّيْخِ حَتّى يَجِدَ مَنْ يَحِلُّ مَكانَهُ في العَمَلِ، ثُمَّ غادَرَ الأَبُ ووَلَدُهُ المَدينَةَ بَعْدَ أَنْ وَدَّعا الشَّيْخَ، وشَكَرَهُ الأَبُ وأَجْزَلَ لَهُ العَطاءَ.

وفي طَريقِ العَوْدَةِ إلى المَنْزِلِ جَلَسا لِيَسْتَريحا قَليلًا مِنْ عَناءِ السَّفَرِ، واسْتَغْرَقا في النَّوْمِ حَتّى اسْتَيْقَظا على صَوْتِ الطُّيورِ وهِيَ تُغَرِّدُ، فَسَأَلَ التّاجِرُ ابْنَهُ:

«ماذا تَقولُ هَذِهِ الطُّيورُ؟»

«لا تَشْغَلْ بالَكَ بِها. لا شَيْءَ مُهِمّ.»

«أَلَمْ تَتَعَلَّمْ لُغَتَها؟ أَلا تَعْرِفُ ما تَقولُهُ هَذِهِ الطُّيورُ؟»

«أَعْرِفُ، ولَكِنَّهُ شَيْءٌ لا قيمَةَ لَهُ.. لا تَهْتَمّ.»

«أَريدُ أَنْ أَعْرِفَ.»

«تَقولُ إِنَّني سَأُصْبِحُ مَلِكًا وأَنْتَ سَتَكونُ مِنَ الرَّعِيَّةِ في

مَمْلَكتي.»

ضاقَ التّاجِرُ لِهَذا الكَلامِ، وقَرَّرَ في نَفْسِهِ شَيْئًا، وقالَ لابْنِهِ إِنَّهُ مُتْعَبٌ، لِذا قَرَّرَ البَقاءَ يَوْمًا آخَرَ في هَذِهِ المَدينَةِ، ولابُدَّ لَهُما مِنَ البَحْثِ عَنْ فُنْدُقٍ يَقْضِيانِ فيهِ لَيْلَتَهُما.

ذَهَبا مَعًا إلى فُنْدُقٍ قَريبٍ. وبَيْنَما الفَتى مُسْتَغْرِقٌ في نَوْمٍ عَميقٍ تَسَلَّلَ التّاجِرُ وخَرَجَ إلى الطَّريقِ بَعْدَ أَنْ تَرَكَ لِابْنِهِ ما يَكْفيهِ مِنْ مالٍ، وبَدَأَ طَريقَ العَوْدَةِ إلى المَنْزِلِ.

اسْتَيْقَظَ الشّابُّ فَلَمْ يَجِدْ أَباهُ، ووَجَدَ النُّقودَ فَفَهِمَ مَغْزى ذَلِكَ.

ولَمّا كانَ قَدْ تَرَكَ مَدينَتَهُ وهُوَ في العاشِرَةِ مِنْ عُمْرِهِ، أَيْ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ سَنَواتٍ فَهُوَ لا يَسْتَطيعُ مَعْرِفَةَ طَريقِ العَوْدَةِ.

قَرَّرَ الشّابُّ البَحْثَ عَنْ مَدينَتِهِ، وراحَ يَنْتَقِلُ مِنْ مَدينَةٍ لِأُخْرى مُعْتَمِدًا على ذِكْرَياتِ طُفولَتِهِ وصِباهُ في التَّعَرُّفِ على مَدينَتِهِ.

واسْتَقَرَّ بِهِ الحالُ في مَدينَةٍ بَدَتْ لَهُ أَنَّها مَدينَتُهُ، ولَمْ يَكُنْ مُتيقِّنًا مِنْ ذَلِكَ.. ولَكِنْ لا يَعْرِفُ أَحَدًا.. ولا يَعْرِفُ طَريقَ مَنْزِلِهِ.. فَمِنْ أَيْنَ يَبْدَأُ؟

سَمِعَ الشّابُّ المُنادي يُنادي على النّاسِ.. يَطْلُبُ مِنْهُمْ تَفْسيرَ حَديثٍ يَدورُ بَيْنَ الطُّيورِ في قَصْرِ المَلِكِ، ويَتَكَرَّرُ كُلَّ يَوْمٍ، وهُوَ يُريدُ أَنْ يَعْرِفَ مَعْنى هَذا الحَديثِ، ومَنْ يَسْتَطيعُ ذَلِكَ يَتَزَوَّجُ الأَميرَةَ.

قَرَّرَ الشّابُّ الذَّهابَ إلى القَصْرِ لِمُقابَلَةِ المَلِكِ. وهُناكَ طَلَبَ مِنْهُ المَلِكُ التَّوَجُّهَ مَعَهُ مُباشَرَةً إلى حَديقَةِ القَصْرِ لِيَسْتَمِعَ لِحَديثِ الطُّيورِ.

كانَتْ ثَلاثَةُ طُيورٍ تَتَحَدَّثُ وَيَبْدو أَنَّ هُناكَ نِزاعًا بَيْنَها على شَيْءٍ ما. إِنَّها تَتَنازَعُ على عُشٍّ فَوْقَ شَجَرَةٍ قَريبَةٍ. كُلُّ طائِرٍ يَدَّعي أَنَّهُ مِلْكٌ لَهُ، ولَقَدْ أَتَتْ لِيَحْكُمَ المَلِكُ بَيْنَها.

قَصَّ الشّابُّ على المَلِكِ ما يَحْدُثُ، فَسَأَلَهُ المَلِكُ:

«ماذا أَفْعَلُ؟ وكَيْفَ أَحْكُمُ بَيْنَها؟»



«أَيُمْكِنُني أَنْ أَقولَ رَأْيًا وأَحْكُمَ بَدَلًا مِنْكَ، يا مَوْلاي؟»

«قُلْ لي، بِاللهِ عَلَيْكَ.»

«سَنَنْتَظِرُ حَتّى يَحِلَّ الظَّلامُ ويَشْتَدَّ، وسَيَسْتَطيعُ الطّائِرُ صاحِبُ العُشِّ الاهْتِداءَ إِلَيْهِ بِغَريزَتِهِ.»

انْتَظَرا حَتّى اشْتَدَّ ظَلامُ اللَّيْلِ، ووَجَدا أَنَّ طائِرًا واحِدًا مِنَ الثَّلاثَةِ يَطيرُ بِسُرْعَةٍ ويَتَجِهُ إِلى العُشِّ، في حينِ وَقَفَ الآخَرانِ مَكانَهُما لا يَدْرِيانِ أَيَّ طَريقٍ يَسْلُكان.

اشْتَدَّ إِعْجابُ المَلِكِ بِذَكاءِ الشّابِّ وعِلْمِهِ، وقَرَّرَ أَنْ يُزَوِّجَهُ ابْنَتَهُ كَما وَعَد.

عُلِّقَتِ الزّيناتُ وأُقيمَتِ الأَفْراحُ ودُقَّتِ الطُّبولُ وعَلَتِ الزَّغاريدُ احْتِفالًا بِالزِّفافِ السَّعيدِ.

دَعا المَلِكُ التُّجّارَ والأَمَراءَ والنُّبَلاءَ والصُّنّاعَ مِنْ كُلِّ الحِرَفِ، كَما دَعا الشَّعْبَ نِساءً ورِجالًا وأَطْفالًا لِيَحْتَفِلوا جَميعًا مَعَهُ بِهَذا الحَدَثِ السَّعيدِ.

وقابَلَ الشّابُّ والِدَيْهِ في حَفْلِ الزِّفافِ وتَعَرَّفَ عَلَيْهِما،

ولَكِنَّ والِدَتَهُ لَمْ تَعْرِفْهُ؛ فَهِيَ تَجْهَلُ أَنَّهُ ما زالَ حَيًّا يُرْزَقُ.

فماذا يَقولُ الأَبُ لِزَوْجَتِهِ؟ وكَيْفَ تكونُ الكِذْبَةُ الثّانِيَةُ؟ وما لَوْنُها؟

حاوِلْ أَنْ تَصِلَ إِلى الإِجابَةِ بِنَفْسِكَ.

# الشَّجَراتُ الثَّلاث

حَسَن صَيّادٌ فَقيرٌ يَعيشُ في مَنْزِلٍ صَغيرٍ بِالقُرْبِ مِنَ البُحَيْرَةِ، يَصْطادُ ما يَكْفيهِ يَوْمًا بِيَوْمٍ. يَسْتَيْقِظُ حَسَن كُلَّ صَباحٍ ويَذْهَبُ إلى البُحَيْرَةِ لِيَصْطادَ، ويَعودُ مَعَ غُروبِ الشَّمْسِ، يُجَهِّزُ طَعامَ العَشاءِ بِشواءِ ما اصْطادَهُ مِنْ أَسْماكٍ، ثُمَّ يَنامُ كَيْ يَصْحُوَ مُبَكِّرًا.

هَكَذا كانَتْ تَمْضي حَياةُ حَسَن دونَ وَنيسٍ ولا جَليسٍ، لا يَتَحَدَّثُ لأَحَدٍ ولا يُحَدِّثُهُ أَحَدٌ، وَحيدًا، فَقيرًا حَتّى ضاقَ مِنْ هَذِهِ الحَياةِ الرَّتيبَةِ المُمِلَّةِ.

وذاتَ مَساءٍ، نَظَرَ حَسَن إلى السَّماءِ وأَخَذَ يَشْكو هَمَّهُ وحُزْنَهُ: «يا رَبُّ، أَنْتَ تَعْلَمُ ما لا أَعْلَمُ، أَنْتَ تَقْدِرُ وأَنا لا أَقْدِرُ.. أَنْتَ سَميعٌ مُجيبُ الدُّعاء. اللَّهُمَّ إنّي أَشْكو إِلَيْكَ حالي.»

وعِنْدَما اسْتَيْقَظَ حَسَن في الصَّباحِ، وعِنْدَ خُروجِهِ مِنْ دارِهِ، لاحَظَ وُجودَ ثَلاثِ شَجَراتٍ كَبيرَةٍ لَمْ يَرَها مِنْ قَبْلُ، فَقالَ لِنَفْسِهِ: «هَلْ كانَتْ هَذِهِ الشَّجَراتُ مَوْجودَةً مِنْ قَبْلُ؟ هَلْ أَنا مُتْعَبٌ وحَزينٌ لِدَرَجَةِ أَنَّني لَمْ أُلاحِظْ وُجودَها؟ ما أَجْمَلَها مِنْ شَجَراتٍ!»

لَمْ يَهْتَمَّ حَسَن بِهَذِهِ الشَّجَراتِ، واكْتَفى بِقَوْلِ ذَلِكَ وأَسْرَعَ إلى عَمَلِهِ.

عِنْدَ عَوْدَتِهِ في المَساءِ سَمِعَ حِوارًا بَيْنَ الشَّجَراتِ الثَّلاثِ:
«أَرَأَيْتِ لَمْ يَهْتَمَّ بِنا.»

«كَأَنْ لا وُجودَ لَنا.»

«أُريدُ أَنْ أَشْرَبَ.. أَنا عَطْشانَة.»

قالَ حَسَن لِنَفْسِهِ: «هَلْ جُنِنْتَ، يا رَجُلُ، حَتّى ظَنَنْتَ أَنَّكَ تَسْتَمِعُ إلى حَديثِ الشَّجَرِ؟» وخَرَجَ لِيَسْتَطْلِعَ الأَمْرَ فَلَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا مُطْلَقًا. عادَ إلى فِراشِهِ ونام.

وفي اليَوْمِ الثّاني والثّالِثِ تَكَرَّرَ نَفْسُ الحَديثِ، فَقَرَّرَ

حَسَن أَنْ يَرْوِيَ الشَّجَراتِ الثَّلاثَ، ثُمَّ وَجَدَ نَفْسَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا يَجْلِسُ بِجِوارِها ثُمَّ بَدَأَ يَتَحَدَّثُ إِلَيْها، ويَشْكو هَمَّهُ، ويَهْتَمُّ بِها.

ازْدَهَرَتِ الشَّجَراتُ ولَمَعَتْ أَوْراقُها، وأَثْمَرَتْ ثِمارًا جَميلَةَ الشَّكْلِ، عَجيبَةَ المَنْظَرِ: الأولى تَتَدَلّى مِنْها ثَمَراتُ التُّفّاحِ الحَمْراءُ بِلَوْنِ الدَّمِ، والثّانِيَةُ تَتَدَلّى مِنْها بُرْتُقالاتٌ صَفْراءُ لامِعَةٌ، والثّالِثَةُ بِها لَيْمونٌ أَخْضَر.

أَعْطَتْ هَذِهِ الشَّجَراتُ لِحَياتِهِ طَعْمًا ولَوْنًا، وأَعطاها اهْتِمامًا وعِنايَةً حَتّى أَصبَحَتْ لا مَثيلَ لَها في جَمالِها ونَضارَتِها وحَلاوَةِ ثِمارِها، وأَبْهَرَتْ كُلَّ مَنْ يَراها حَتّى ذاعَ صيتُها، وحَكى النّاسُ عَنْها في كُلِّ مَكان.

وصَلَ خَبَرُ هَذِهِ الشَّجَراتِ إِلى المَلِكِ الَّذي اعْتادَ أَنْ يَمْلِكَ كُلَّ شَيْءٍ، فَذَهَبَ مَعَ الخَدَمِ والحَشَمِ والحُرّاس في مَوْكِبٍ كَبيرٍ. ولَمّا وَصَلَ عِنْدَ الشَّجَراتِ أَدْهَشَهُ جَمالُها وطَلَبَ نَقْلَها إِلى حَديقَةِ قَصْرِهِ، فَقالَ لَهُ الوَزيرُ:

«إِنَّ نَقْلَها صَعْبٌ، يا مَوْلاي، فَهِيَ كَبيرَةٌ جِدًّا، وإِذا

قَطَعْناها لِنَنْقُلَها فَقَدْ تَموت.»

«أُريدُ هَذِهِ الشَّجَراتِ.. أُريدُها بِأَيِّ ثَمَنٍ، وبِأَيَّةِ طَريقَة.»

«صَعْبٌ، يا مَوْلاي.»

«إِذَنْ سَأَنْقُلُ قَصْري بِجِوارِها. إِذا لَمْ أَكُنْ أَسْتَطيعُ نَقْلَها سَأَنْتَقِلُ أَنا إِلَيْها.» ثُمَّ نَظَرَ المَلِكُ إِلى مَنْزِلِ الصَّيّادِ مُتَسائِلًا:

«لِمَنْ هَذا المَنْزِل؟»

«إِنَّهُ مِلْكُ صَيّادٍ فَقيرٍ.»

«اهْدِموهُ فَوْرًا وابْدَأوا في بِناءِ قَصْري مَكانَهُ.»

سَمِعَ الصَّيّادُ بِما يَحْدُثُ عِنْدَ مَنْزِلِهِ، فَعادَ مُسْرِعًا ووَجَدَ رِجالَ المَلِكِ قَدْ شَرَعوا في هَدْمِ مَنْزِلِهِ، فَحاوَلَ مَنْعَهُمْ بِالقُوَّةِ، ولَكِنَّهُ فَقَدَ حَياتَهُ الَّتي كانَتْ ثَمَنًا لِحَماسَتِهِ ومُحاوَلَتِهِ الدِّفاعَ عَنْ نَفْسِهِ وعَنْ مَنْزِلِهِ.

غادَرَ المَلِكُ والحاشِيَةُ المَكانَ بَعْدَ أَنْ تَرَكوا العُمّالَ يَبْنونَ القَصْرَ ويُمَهِّدونَ الأَرْضَ ويَزْرَعونَ المَكانَ حَوْلَ الشَّجَراتِ الثَّلاث. وشَيَّعَ أَصْدِقاءُ الصَّيّادِ جُثْمانَهُ وتَمَّ دَفْنُهُ

بِجوارِ البُحَيْرَةِ في مَقْبَرَةٍ صَغيرَةٍ.

وأَخَذَ المَلِكُ يُتابِعُ عَمَلِيَّةَ البِناءِ، ويَذْهَبُ بِنَفْسِهِ كُلَّ يَوْمٍ لِيُشْرِفَ على العُمّالِ، ويَعُدُّ الأَيّامَ والأَسابيعَ والشُّهورَ حَتّى تَمَّ الانْتِهاءُ مِنْ بِناءِ القَصْرِ.

وقَرَّرَ المَلِكُ أَنْ تَكونَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ لَهُ في القَصْرِ لَيْلَةً مِنْ أَلْفِ لَيْلَة. أَقامَ حَفْلًا رائِعًا شَهِدَهُ النُّبَلاءُ والأَعْيانُ، عُلِّقَتْ



فيهِ الزّيناتُ وسُلِّطَتِ الإِضاءَةُ على الشَّجَراتِ الثَّلاثِ في مَكانِهِما المُمَيَّزِ بِالحَديقَةِ الغَنّاء.

وامْتَدَّ الحَفْلُ حَتّى الصَّباحِ. وغادَرَ الضُّيوفُ إلى مَنازِلِهِمْ، وذَهَبَ المَلِكُ لِيَنامَ، وعِنْدَما اسْتَيْقَظَ في الصَّباحِ لَمْ يَكُنْ لِلشَّجَراتِ الثَّلاثِ وُجودٌ.. اخْتَفَتْ.. وبَحَثوا عَنْها في كُلِّ مَكان.. ووَجَدوها عِنْدَ مَقْبَرَةِ الصَّيّادِ بِجِوارِ البُحَيْرَة.



# مَنْ أَيْنَ تَأْتِي الحِكْمَةُ؟

في بِلادٍ بَعيدَةٍ حِكايَتُها غَريبَةٌ عاشَ سُلْطانٌ يَحْكُمُ شَعْبَهُ بِالعَدْلِ والحُبّ. وذاتَ يَوْمٍ أَرادَ هَذا السُّلْطانُ أَنْ يَخْتَبِرَ شَعْبَهُ ويَعْرِفَ مَدى حُبِّهِ لَهُ وطاعَتِهِ لأَوامِرِهِ، فَقالَ لِلْوَزيرِ:

«اكْتُبْ هَذا الأَمْرَ السُّلْطانِيَّ.. على الجَميعِ أَنْ يُطْفِئوا الأَنْوارَ.. ويَعيشَ هَذا الشَّعْبُ في الظَّلامِ ثَلاثَةَ أَيّام.»

وفي اليَوْمِ الأَوَّلِ لِصُدورِ هَذا الحُكْمِ خَرَجَ السُّلْطانُ مَعَ وَزيرِهِ لِيَسْتَطْلِعَ الأَمْرَ ويَعْرِفَ إذا كانَ الجَميعُ أَطاعوا أَمْرَهُ فَهُمْ يَدينونَ لَهُ بِالوَلاءِ والطّاعَة.. هُوَ السُّلْطانُ وهُمُ الرَّعِيَّةُ.

أَخَذَ السُّلْطانُ يَجوبُ الشَّوارِعَ والمَيادينَ بِصُحْبَةِ وَزيرِهِ، يَتَحَسَّسانِ طَريقَهُما بِصُعوبَةٍ شَديدَةٍ.. وكادَ السُّلْطانُ أَنْ يَتَعَثَّرَ ويَسْقُطَ عِدَّةَ مَرّاتٍ مِنْ شِدَّةِ الظَّلامِ. فَكُلُّ شَيْءٍ مُظْلِمٌ حالِكُ السَّوادِ. شَعَرَ السُّلْطانُ بِسَعادَةٍ بالِغَةٍ، فَها هُوَ الشَّعْبُ بِأَكْمَلِهِ يُطيعُ أَوامِرَهُ، وهَذا دَليلٌ على حُبِّهِمْ لَهُ وتَقْديرِهِمْ لِشَخْصِهِ.

وهَمَّ السُّلْطانُ بِالانْصِرافِ والعَوْدَةِ إلى قَصْرِهِ، ولَكِنَّهُ رَأى شُعاعًا مِنَ الضَّوْءِ يَنْبَعِثُ مِنْ مَنْزِلٍ صَغيرٍ، فاقْتَرَبَ لاسْتِطْلاعِ الأَمْرِ، وسَمِعَ هَذا الحَديثَ يَدورُ بَيْنَ ثَلاثِ فَتَيات:

قالَتِ الأولى: «أَخْشى أَنْ يَرى أَحَدٌ هَذا الضَّوْءَ الخافِتَ الَّذي يَنْبَعِثُ مِنْ مَنْزِلِنا فيُعاقِبَنا السُّلْطانُ.»

أَجابَتْها الثّانِيَةُ: «ولَكِنَّنا مُضْطَرّونَ لِذَلِكَ، فَنَحْنُ نَعيشُ مِنْ أَعْمالِ الحِياكَةِ والتَّطْريزِ الَّتي هِيَ دَخْلُنا الوَحيدُ ومَصْدَرُ رِزْقِنا.»

وأَضافَتِ الثّالِثَةُ: «يَجِبُ إِنْجازُ هَذِهِ الأَعْمالِ لِبَيْعِها في الصَّباحِ لِنَجِدَ قوتَ يَوْمِنا. لَقَدْ تَعِبْنا مِنَ العَمَلِ في اللَّيْلِ والنَّهارِ.. لا نَخْرُجُ مِنَ المَنْزِلِ إلّا لِبَيْعِ هَذِهِ الأَعْمالِ وشِراءِ ما نَحْتاجُهُ مِنْ طَعامٍ وشَرابٍ.»

فَقالَتِ الكُبْرى: «آهٍ، كَمْ أَتَمَنّى لَوْ تَزَوَّجْتُ خَبّازَ السُّلْطانِ لأَحْصُلَ دائِمًا على العَيْشِ الطّازَجِ لِيَسُدَّ جوعي.»

وكانَتِ الوُسْطى أَكْثَرَ طُموحًا مِنْها، فَقالَتْ: «آهٍ، لَوْ تَزَوَّجْتُ طاهي السُّلْطانِ لَحَصَلْتُ على أَطْيَبِ الطَّعامِ وأَفْضَلِ الشَّرابِ.»

وكانَتِ الصُّغْرى أَكْثَرَهُنَّ جَمالًا وبَهاءً وتَعْرِفُ جَيِّدًا قَدْرَ نَفْسِها، لِذا كانَ طُموحُها يَفوقُ ما تَمَنَّتْهُ أُخْتاها، فَقالَتْ:

«أَمّا أَنا فَأُريدُ أَنْ أَتَزَوَّجَ السُّلْطانَ، وسَأَمْنَحُهُ طِفْلَةً جَميلَةً بَيْضاءَ مِثْلَ اللَّبَنِ، لَها شَعْرَةٌ مِنَ الذَّهَبِ وأُخْرى مِنَ الفِضَّةِ.. عِنْدَما تَضْحَكُ تُشْرِقُ الشَّمْسُ، وعِنْدَما تَبْكي يَسْقُطُ المَطَرُ.»

سَمِعَ السُّلْطانُ حَديثَ الفَتَياتِ الثَّلاثِ، وعادَ إِلى القَصْرِ، وأَخَذَ يُفَكِّرُ فيه. وقَرَّرَ أَنْ يُحَقِّقَ لَهُنَّ أُمْنِياتِهِنَّ، ولَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَراهُنَّ أَوَّلًا؛ فطَلَبَ مِنَ الوَزيرِ أَنْ يُحْضِرَهُنَّ.

طَرَقَ الوَزيرُ بابَ المَنْزِلِ، فَتَحَتِ الصُّغْرى فبادَرَها



بِالتَّحِيَّةِ وَقالَ: «أَرْسَلَني السُّلْطانُ لاسْتِدْعائِكُنَّ، فَهُوَ يُريدُ التَّحَدُّثَ مَعَكُنَّ في أَمْرٍ هامٍّ.»

قالَتْ لَهُ: «قُلْ لِلسُّلْطانِ أَنْ يُرسِلَ لَنا ثِيابًا تَليقُ بِهَذا اللِّقاءِ؛ فَلَيْسَ لَدَيْنا ما يُناسِبُ هَذِهِ الزِّيارَةَ لِسُلطانِ البِلادِ وحاكِمِ العِباد.»

عادَ الوَزيرُ وقَصَّ على السُّلْطانِ ما قالَتْهُ الفَتاةُ، فَأَمَرُ بِإِحْضارِ ثَلاثَةِ ثِيابٍ فاخِرَةٍ مُطَرَّزَةٍ بِالذَّهَبِ والفِضَّةِ ومُزَيَّنَةٍ بِالأَحْجارِ النَّفيسَةِ.

ارْتَدَتِ الفَتَياتُ الثِّيابَ، مِمّا زادَ جَمالَهُنَّ وحُسْنَهُنَّ، وذَهَبْنَ مَعَ الوَزيرِ إلى قَصْرِ السُّلْطان.

انْبَهَرَ السُّلْطانُ بِهَذا الجَمالِ الرّائِعِ والحُسْنِ الفاتِنِ وقالَ لَهُنَّ: «لَقَدْ سَمِعْتُ حَديثَكُنَّ.»

احْمَرَّ وَجْهُهُنَّ خَجَلًا فَزادَهُنَّ جَمالًا.

اسْتَطْرَدَ السَّلْطانُ: «سَأُحَقِّقُ لَكُنَّ أُمْنِياتِكُنَّ.. سَتَتَزَوَّجُ الكُبْرى مِنْ خَبّازِ القَصْرِ، والوُسْطى مِنَ الطّاهي. أَمّا أَنا

فَسَأَتَزَوَّجُ أَصْغَرَكُنَّ على أَنْ تَمْنَحَني طِفْلَةً بَيْضاءَ كاللَّبَنِ، لَها شَعْرَةٌ مِنَ الذَّهَبِ وأُخْرى مِنَ الفِضَّةِ، وعِنْدَما تَضْحَكُ تُشْرِقُ الشَّمْسُ، وعِنْدَما تَبْكي يَسْقُطُ المَطَرُ.»

فَرِحَتِ الفَتاتانِ وأَعْرَبَتا عَنْ مُوافَقَتِهِما، ولَكِنَّ الصُّغْرى قالَتْ: «سَأَتَزَوَّجُ السُّلْطانَ إِذا أَجابَ عَنْ سُؤالي.»

«أَيُّ سُؤالٍ؟»

«سَأَطْرَحُ عَلَيْكَ سُؤالًا إِذا اسْتَطَعْتَ الإِجابَةَ عَنْهُ لَتَزَوَّجْتُكَ ومَنَحْتُكَ هَذِهِ الطِّفْلَةَ الَّتي تَبْغيها.»

«اطْرَحي سُؤالَكِ.»

«مِنْ أَيْنَ تَأْتي الحِكْمَةُ أَيُّها السُّلْطانُ؟»

شَعَرَ السُّلْطانُ بِالحيْرَةِ، ولَمْ يَدْرِ ماذا يَفْعَلُ؛ فَهُوَ لا يَمْتَلِكُ الإِجابَةَ، فاسْتَشاطَ غَضَبًا، وقالَ لَها:

«كَيْفَ تَجْرُئينَ على اخْتِبارِ السُّلْطانِ وطَرْحِ الأَسْئِلَةِ عَلَيْهِ... سَيَكونُ عِقابُكِ شَديدًا. يا حُرّاسُ، احْبِسوا هَذِهِ الفَتاةَ في البُرْجِ المَهْجورِ في آخِرِ القَصْرِ.»

تَزَوَّجَتِ الأُخْتُ الكُبْرى مِنَ الخَبّازِ، والوُسْطى مِنَ الطّاهي، وحُبِسَتِ الصُّغْرى في البُرْجِ المَهْجور. ومَرَّتِ الأَيّامُ والأَسابيعُ، ثُمَّ جاءَ السُّلْطانُ لِزِيارَتِها وسَأَلَها:

«هَلْ تَراجَعْتِ عَنْ سُؤالِكِ؟ مَتى نُعْلِنُ نَبَأَ الزَّواجِ السَّعيدِ، ونُعَلِّقُ الزّيناتِ، ونَقْرَعُ الطُّبولَ، ويَبْدَأُ الاحْتِفالُ بِالعُرْس؟»

«لَيْسَ قَبْلَ أَنْ تُجيبَ عَنْ سُؤالي.»

«امْنَعوا عَنْها الطَّعامَ والشَّرابَ.»

صَبَرَتِ الفَتاةُ على الجوعِ والعَطَشِ، ومَرَّتِ الأَيّامُ والأَسابيعُ، وجاءَ السُّلْطانُ لِزِيارَتِها فَوَجَدَها هَزيلَةً ضَعيفَةً قَدْ أَصابَها الإِعْياءُ، فَقالَ لَها وهُوَ واثِقٌ هَذِهِ المَرَّةَ مِنْ قَبولِها الزَّواجَ: «مَتى يَبْدَأُ الاحْتِفالُ بِالعُرْسِ السَّعيدِ؟»

«لَيْسَ قَبْلَ أَنْ تُجيبَ عَنْ سُؤالي.»

ازْدادَ غَضَبُ المَلِكِ وصاحَ في غَيْظٍ وضيقٍ شَديدٍ:

«قَيِّدوها بِالأَغْلالِ حَتّى تَرْضَخ.»



عاشَ السُّلْطانُ في هَمٍّ وحُزْنٍ، فَهُوَ يُريدُ الزَّواجَ بِهَذِهِ الفَتاةِ الجَميلَةِ، ولَكِنَّهُ لا يَعْرِفُ لِلسُّؤالِ إجابَةً، كَما أَنَّهُ يَتَشَوَّقُ لِرُؤْيَةِ هَذِهِ الطِّفْلَةِ الجَميلَةِ الَّتي سَتكونُ ابْنَتَهُ. وأَخَذَ يَتَساءَلُ ماذا يَفْعَلُ، ويُفَكِّرُ لَيْلَ نَهارٍ في إِجابَةِ هَذا السُّؤالِ دونَ جَدْوى.

وخَشِيَ السُّلْطانُ على الفَتاةِ، فَهِيَ إِنْ بَقِيَتْ على هَذِهِ الحالِ قَدْ يَفْقِدُها إلى الأَبَد.. لَمْ يَحْتَمِلْ هَذِهِ الفِكْرَةَ فَأَسْرَعَ إِلَيْها قائلًا: «لَقَدْ عَجَزَ الصَّبْرُ عَنْ صَبْري عَلَيْكِ، وأَنْتِ بِدَوْرِكِ صَبَرْتِ على الحَبْسِ وعلى الجوعِ والعَطَشِ وعلى القَيْدِ.. انْظُري ما وَصَلَ إِلَيْهِ حالُنا.. أَلَيْسَ مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ تَتراجَعي عَنْ سُؤالِكِ وتَقْبَلي الزَّواجَ بي، وأَعِدُكِ أَنْ تَكوني سَعيدَةً آمِنَةً مَعي.»

ضَحِكَتِ الفَتاةُ قائِلَةً: «لَقَدْ أَجَبْتَ لِتَوِّكَ عن سُؤالي.»

دَهِشَ السُّلْطانُ وسَأَلَها: «كَيْفَ؟ أَتَهْزَئينَ بي؟»

«لَقَدْ أَجَبْتَ بِالفِعْلِ عَنْ سُؤالي.. إِنَّ الحِكْمَةَ تَأْتي مِنَ الصَّبْرِ، يا مَوْلاي.»

دَقَّتِ الطُّبولُ مُعْلِنَةً الزِّفافَ السَّعيدَ، وعُلِّقَتِ الزّيناتُ، وتَزَوَّجَ السُّلْطانُ الفَتاةَ، ورُزِقا طِفْلَةً جميلَةً بَيْضاءَ مِثْلَ اللَّبَنِ، لَها شَعْرَةٌ مِنَ الذَّهَبِ وأُخْرى مِنَ الفِضَّةِ، تُشْرِقُ الشَّمْسُ عِنْدَما تَضْحَكُ ويَسْقُطُ المَطَرُ عِنْدَما تَبْكي.

# شُكْر

جَمال رَجُلٌ غَنِيٌّ يَمْلِكُ المالَ والجاهَ، لَدَيْهِ وَلَدانِ مِنْ خيرَةِ الشَّبابِ، وأراضٍ وقُصورٌ ومَزارِعُ.. يَعيشُ راضِيًا، مُرْتاحَ البال. واعْتادَ أَنْ يَتَناوَلَ طَعامَ الإِفْطارِ في حَديقَةِ قَصْرِهِ وَهو يَسْتَمِعُ إِلى تَغْريدِ العَصافيرِ، ويَسْتَنْشِقُ رائِحَةَ الزُّهورِ العَطِرَةَ والنَّسيمَ العَليلَ، فَيَبْدَأُ يَوْمَهُ في نَشاطٍ وحَيَوِيَّةٍ ويَتَفَرَّغُ بَعْدَ ذَلِكَ لِأَعْمالِهِ وإِدارَةِ مُمْتَلَكاتِهِ.

وذاتَ صَباحٍ جَلَسَ يَتَناوَلُ طَعامَهُ، وراحَ يَسْتَمِعُ إِلى هَديلِ يَمامَةٍ وَقَفَتْ على غُصْنِ الشَّجَرَةِ المُجاوِرَةِ لَهُ، وأَخَذَ يَنْظُرُ إِلَيْها ويَسْتَمِعُ إِلى هَديلها حتّى غَلَبَهُ النَّوْمُ.

ورَأى جَمال في مَنامِهِ هَذا الحُلْمَ:

رَأى اليَمامَةَ تَقْتَرِبُ مِنْهُ وتَقِفُ على كَفِّ يَدِهِ تَلْتَقِطُ ما بِهِ مِنْ حَبٍّ وهُوَ يَمْسَحُ بِيَدِهِ الأُخْرى على ظَهْرِها ويُداعِبُها، فَأَخَذَتْ تُغَرِّدُ بِصَوْتٍ جَميلٍ دافِئٍ، وسَأَلَها:

«ماذا تَقولينَ، أَيَّتُها اليَمامَةُ؟ إنّي أَسْمَعُ صَوْتَكِ كَثيرًا



وأَتَساءَلُ ما الَّذي تَقولينَهُ، ولا أَجِدُ جوابًا لِسُؤالي.»

«أَقولُ كوكو اشْكُروا رَبَّكُمْ...»

«على أَيِّ شَيْءٍ تَشْكُرينَ رَبَّكِ؟»

«على الكَثيرِ والكَثيرِ مِنَ النِّعَمِ.. على عَيْني الَّتي تَرى وجَناحي الَّذي يَنْقُلُني مِنْ مَكانٍ إلى آخَرَ لِأَبْحَثَ عَنْ طَعامي.. عَنْ هَذا العُشِّ الَّذي أَنامُ فيهِ مُطْمَئِنَّةً عِنْد غُروبِ الشَّمْسِ.. عَنْ وُجودي في هَذِهِ الحَديقَةِ الجَميلَةِ الآمِنَةِ.. عَنِ الكَثيرِ.. الكَثيرِ..»

«كوكو كوكو اشْكُروا رَبَّكُمْ...»

«كوكو كوكو اشْكُروا رَبَّكُمْ...»

اسْتَيْقَظَ جَمال وهُوَ يُقَلِّدُ صَوْتَ اليَمامَةِ، وأَخَذَ يُفَكِّرُ فيما قالَتْهُ.. أَعْطاهُ اللهُ المالَ والبَنينَ والثَّرواتِ والخَيْراتِ..

زَوْجَةٌ مُخْلِصَةٌ وأُسْرَةٌ كَبيرَةُ العَدَدِ يَجِدُهُمْ حَوْلَهُ إذا احْتاجَهُمْ.. عَيْنانِ يَرى بِهِما.. أُذُنانِ يَسْمَعُ بِهِما... قَدَمانِ يَسيرُ بِهِما، ولَمْ يَحْرِمْهُ مِنْ نِعْمَةِ البَصَرِ والسَّمْعِ والسَّيْرِ كَما

حَرَمَ بَعْضَ النّاسِ.. أَعْطاهُ المالَ الَّذي يَحْصُلُ بِهِ على كُلِّ ما يُريدُ ويَتَمَنّى مِنْ طَعامٍ وشَرابٍ.. أَعْطاهُ الصِّحَّةَ ووَقاهُ شَرَّ المَرَضِ.. أَعْطاهُ الحُبَّ والصَّداقَةَ.. الأَمانَ والطُّمَأْنينَةَ.. أَعْطاهُ.. أَعْطاهُ.. أَعْطاهُ...

فَهَلْ بَعْدَ كُلِّ ذَلِكَ لا يَشْكُرُ اللهَ؟ هَلْ شَكَرَ اللهَ على كُلِّ هَذِهِ النِّعَمِ مِثْلَ تِلْكَ اليَمامَةِ الَّتي لا تَتَوَقَّفُ عَنِ الشُّكْرِ؟ يا لَهُ مِنْ جاحِدٍ لا يُقَدِّرُ قيمَةَ كُلِّ ما يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ نِعَمٍ وعَطايا وهَبَهُ اللهُ إِيّاها!

مُنْذُ ذَلِكَ الصَّباحِ ولِسانُ جَمال لا يَتَوَقَّفُ عَنِ الشُّكْرِ، فأَوَّلُ شَيْءٍ يَفْعَلُهُ في الصَّباحِ عِنْدَما يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ هُوَ شُكْرُ الله وآخِرُ شَيْءٍ يُتَمْتِمُ بِهِ لِسانُهُ قَبْلَ اسْتِغْراقِهِ في النَّوْمِ هُوَ شُكْرُ اللهِ.

وكانَ لِجَمال أَعْمالٌ ومُمْتَلَكاتٌ في بُلْدانٍ كَثيرَةٍ، وكانَ يَسْتَعينُ بِوَلَدَيْهِ في السَّفَرِ لِلإِشْرافِ على تِجارَتِهِ وأَعْمالِهِ.

وتَعَلَّمَ جَمال أَنْ يُداوِمَ على شُكْرِ اللهِ حَتّى في وَقْتِ الشِّدَّةِ والمِحَنِ، فَعِنْدَما مَرِضَ أَحَدُ ابْنَيْهِ كانَ يَشْكُرُ اللهَ على أَنَّ

الابْنَ الآخَرَ لَمْ يَمْرَضْ.

وعِنْدَما أَصْبَحَتْ إِحْدى عَيْنَيْهِ ضَعيفَةً لا يَكادُ يَرى بِها ما أَمامَهُ شَكَرَ اللهَ أَنَّ لَهُ عَيْنًا أُخرى تُساعِدُهُ على الإِبْصارِ.

ومَرَّتِ الأَيامُ بِجَمالٍ وازْدادَتْ ثَرْوَتُهُ وكَبُرَتْ تجارَتُهُ، ولَكِنْ وَهَنَتْ صِحَّتُهُ، وكَبَرَتْ سِنُّهُ وأَصْبَحَ شَيْخًا عجوزًا فخَشِيَ أَنْ يَتَوَفّاهُ اللهُ قَبْلَ أَنْ يُزَوِّجَ ابْنَهُ ويُعِدَّهُ لإِدارَةِ أَعْمالِ أُسْرَتِهِ وشُؤونِها. أَخَذَ جَمال يَبْحَثُ لِابْنِهِ عَنْ عَروسٍ تَمْنَحُهُ الأَوْلادَ وتَرْعاهُ وتُؤْنِسُهُ وتَكونُ رَفيقَتَهُ في حَياتِهِ. ولَكِنَّهُ في النِّهايَةِ عِنْدَما أَرْهَقَهُ البَحْثُ قَرَّرَ أَنْ يَتْرُكَ لِابْنِهِ الاخْتِيارَ، وأَنْ يُقيمَ حَفْلًا كَبيرًا يَدْعو فيهِ كُلَّ بَناتِ البَلَدِ اللّاتي في سِنِّ الزَّواجِ، وأَنْ يَسْتَمِرَّ الحَفْلُ سَبْعَةَ أَيّام بِلَياليها. وفي نِهايَةِ هَذِهِ الأَيّامِ السَّبعِ يُعْلِنُ الابْنُ عَنِ اسْمِ الَّتي اخْتارَها لِتكونَ شَريكَةً لِحَياتِهِ.

وقَبْلَ الحَفْلِ بِعِدَّةِ أَيّامٍ اسْتَدْعى جَمال وَلَدَهُ وجَلَسَ مَعَهُ وبَدَأَ حَديثَهُ قائِلًا:

«كَيْفَ سَتَخْتارُ، يا بُنَيَّ، عَروسَكَ؟ وعَلى أَيِّ أَساسٍ؟»

أَجابَهُ الابْنُ: «أُريدُها، يا والِدي، كالبَدْرِ في تَمامِهِ، شَقْراءَ.. شَعْرُها كَخُيوطِ الذَّهَبِ.. عَيْناها فيها زُرْقَةُ السَّماءِ.. خَدّاها بِلَوْنِ الوَرْدِ، شَفَتاها بِلَوْنِ الكَرَزِ و...»

قاطَعَ جَمال وَلَدَهُ قائِلًا: «الجَمالُ، يا بُنَيَّ، لا يَدومُ، وحتّى إذا دامَ فَلَنْ يَكونَ هُوَ مِفْتاحَ سَعادَتِكَ.»

«فَهِمْتُ، يا أَبي، ما تَعْني.. أُريدُها إِذَنْ أَكْثَرَ مِنّي ثَراءً فَأُضيفُ ثَرْوَتي إلى ثَرْوَتِها ونُصْبِحُ أَغْنى الأَغْنِياءِ، و...»

قاطَعَهُ جَمال بِحِدَّةٍ: «يا بُنَيَّ، لا يَصْنَعُ المالُ السَّعادَةَ...»

«فَهِمْتُكَ، يا أَبي، إِنَّهُ العَقْلُ، أُريدُها إِذَنْ ذاتَ عَقلٍ راجِحٍ.. تَتَمَتَّعُ بِذَكاءٍ خارِقٍ.. تَفْهَمُني بِدونِ أَنْ أَتَكَلَّمَ.. تَحُلُّ مَشاكِلي.. تَكونُ مَلْجَئي ومَلاذي إذا اسْتَعْصى عَلَيَّ أَمْرٌ..»

«العَقْلُ مُهِمٌّ، يا بُنَيَّ، ولَكِنْ هُناكَ ما هُوَ أَهَمُّ...»

«ما هُوَ أَهَمُّ مِنَ الجَمالِ والمالِ والعَقْلِ؟»

«نَعَمْ، يا بُنَيَّ، الشُّكْرُ.. الرِّضا.. فَهُما مِفْتاحُ السَّعادَةِ.»

«ماذا؟ الشُّكْرُ! الرِّضا! ماذا تَعْني، يا والِدي؟»

«الشُّكْرُ في السَّرّاءِ والضَّرّاءِ، في الصِّحَّةِ والمَرَضِ، في الحُزْنِ والفَرَحِ، والرِّضا بِما كَتَبَهُ اللهُ وبما يَحْدُثُ وبما حَدَثَ وبِما سَيَحْدُث... إنَّ الَّتي تَرْضى سَتُرْضيكَ وسَتكونُ دائِمًا سَعيدَةً، شاكِرَةً حامِدَةً، فَتُضْفي على بَيْتِكَ السَّعادَةَ، وعلى حَياتِكَ البَهْجَةَ والسُّرور...

«أَرْجو أَنْ يَكونَ اخْتِيارُكَ على هَذا الأَساسِ، فَلا تَنْسَ، يا بُنَيَّ، الرّاضيَةَ.. الشّاكِرَةَ.»

بَدَأَ الحَفْلُ في القَصْرِ.. حَفْلٌ لَمْ تَرَهُ عَيْنٌ مِنْ قَبْلُ ولا سَمِعَتْ به أُذُنٌ.. حَفْلٌ مِنْ ليالي أَلْفِ لَيْلَةٍ ولَيْلَةٍ.. دُقَّتِ الطُّبولُ وعُزِفَتِ الموسيقى.. وقُدِّمَ ما لَذَّ وطابَ مِنَ الطَّعامِ.. وكانَتِ الفَتَياتُ في أَبْهى زينَتِهِنَّ، يَرْتَدينَ أَجْمَلَ الثِّيابِ والحُلِيِّ ويَتَنافَسْنَ لِلْفَوْزِ بِالعَريس المُنْتَظَرِ... تُحاوِلُ كُلُّ واحِدَةٍ أَنْ تَلْفِتَ نَظَرَهُ إِلَيْها وهُوَ يَنْتَقِلُ مِنْ واحِدَةٍ إِلى الأُخْرى، وصَوْتُ أَبيهِ في أُذُنِهِ يَقولُ ويُكَرِّرُ.. الشّاكِرَةَ.. الرّاضِيَةَ.

ومَرَّتِ الأَيّامُ واللَّيالي.. والاخْتِيارُ صَعْبٌ.. والتَّنافُسُ شَديدٌ، وفي اليَوْمِ السّابعِ، وفيما يَنْتَقِلُ الفَتى مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ، لَمَحَ فَتاةً تَخْتَلِفُ عَنْ جَميعِ الفَتَياتِ واقِفَةً في رُكْنٍ مُنْعَزِلٍ تَنْظُرُ ولا تُشارِكُ.. تَرْتَدي ثَوْبًا مُتَواضِعًا.. لَيْسَتْ جَميلَةً كَغَيْرِها، ولَكِنْ بِها مِنَ السِّحْرِ والجاذِبِيَّةِ ما يَجْعَلُها تَفوقُ غَيْرَها.

جَذَبَتْهُ بِهَذا السِّحْرِ وهَذا الاخْتِلافِ فاقْتَرَبَ مِنْها وسَأَلَها: «ما اسْمُكِ؟»

«اسْمي رِضا.»

«رِضا؟»

«نَعَمْ.»

«ولِماذا لا تَرْتَدينَ ثَوْبًا غالِيًا مِثْلَ باقي الفَتَياتِ؟ ولِماذا لا تَرْتَدينَ حُلِيًّا؟ ولِماذا لا تُشارِكينَ في الرَّقْصِ؟»

«ولِماذا أَشْتَري ثَوْبًا غالِيًا لِأَلْبَسَهُ سَبْعَ ليالٍ فَقَطْ، في حينِ أَنَّ ما أَرْتَديه يُعْجِبُني رَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يُكَلِّفْني كَثيرًا؟ ولِماذا

أَرْتَدي حُلِيًّا باهِظَةَ الثَّمَنِ وأَدْفَعُ فيها ما يَفوقُ إمْكانيّاتِ أُسْرَتي؟ إِنّي لا أُشارِكُ في الرَّقْصِ لِأَنَّهُ لَمْ يَطْلُبْ مِنّي أَحَدٌ ذَلِكَ.. أَنا سَعيدَةٌ هَكَذا.. راضِيَةٌ بِحالي.. شاكِرَةٌ رَبّي، ولَقَدْ رَأَيْتُ حَفْلًا لَمْ أَكُنْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَراهُ، وأَكَلْتُ ما لَذَّ وطابَ مِنَ الطَّعامِ، واسْتَمْتَعْتُ بِمُشاهَدَةِ كُلِّ هَذا الجَمالِ والبَذَخِ والثَّراءِ، وهَذا يَكْفيني، بَلْ هُوَ أَكْثَرُ مِنْ كُلِّ تَوَقُّعاتي وأَكْبَرُ مِنْ كُلِّ أَحْلامي.»

«وما هِيَ أَحْلامُكِ؟»

«أَحْلامي أُسْرَةٌ سَعيدَةٌ.. زَوْجٌ يُحِبُّني وأَطْفالٌ يَمْلأونَ حَياتي بِالبَهْجَةِ.. والعَيْشُ في صِحَّةٍ وراحَةِ بالٍ.. لا يَهُمُّني المالُ، فالقَليلُ يَكْفيني و...»

قَبْلَ أَنْ تُكْمِلَ رِضا حديثَها كانَ الابْنُ قَدِ اصْطَحَبَها إلى أَبيهِ وبادَرَهُ قائِلًا:

«أُقَدِّمُ لَكَ، يا أَبي، رِضا.. الفَتاةَ الَّتي اخْتَرْتُها.. رِضا هُوَ اسْمُها ورِضا هُوَ صِفَتُها، فَهِيَ شاكِرَةٌ.. راضِيَةٌ..»



وأُقيمَ العُرْسُ وعاشا في سَعادَةٍ وراحَةِ بالٍ.

# الأَرْضُ تَبْقى ثابِتَةً

حَياةُ الإِنْسانِ مُوَزَّعَةٌ بَيْنَ الواقِعِ والخَيالِ، بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ، خَيالٍ يَهْرُبُ فيهِ مِنَ الواقِعِ ويُحَقِّقُ فيهِ ما لا يَسْتَطيعُ تَحْقيقَهُ. ولا غِنًى لِلإنْسان عَنِ الخَيالِ، كَما عَلَيْهِ أَنْ يَعيشَ واقِعَ حَياتِهِ وإلّا حَدَثَ لَهُ ما حَدَثَ لِتامِر الصَّغير.

تامِر طِفْلٌ ذَكِيٌّ، ولَكِنَّهُ خَيالِيٌّ، بَلْ خَيالِيٌّ جِدًّا يَخْلِطُ الواقِعَ بِالأَحْلامِ، ويَأْخُذُهُ الخَيالُ بَعيدًا عَنْ أَرْضِ الواقِعِ.

فَفي فَصْلِ الشِّتاءِ يَقْضي مُعْظَمَ وَقْتِهِ في الحَديقَةِ المُجاوِرَةِ لِمَنْزِلِهِ، يَنْظُرُ إلى الطُّيورِ في السَّماءِ ويُراقِبُها ساعاتٍ، وساعاتٍ ثُمَّ يَتَساءَلُ كَيْفَ تَطيرُ وكَيْفَ تَعْلو في السَّماءِ حُرَّةً طَليقَةً بِلا حُدودٍ تارِكَةً العِنانَ لإِرادَتِها ولِرَغَباتِها.

وكانَ تامِر يَعْشَقُ هَذِهِ الطُّيورَ ويَتَمَنّى أَنْ يَكونَ طائِرًا مِثْلَها. وكَثيرًا ما يَتَخَيَّلُ نَفْسَهُ طائِرًا يَرْتَفِعُ تارَةً إلى عَنانِ

السَّماءِ ثمَّ يَنْزِلُ على الأَرْضِ عِنْدَما يُريد.

أَمّا في فَصْلِ الصَّيْفِ فكانَ تامِر يَقْضي مُعْظَمَ وَقْتِهِ على شاطِئِ البَحْرِ يَنْظُرُ إلى الماءِ الأَزْرَقِ الصّافي الَّذي يَمْتَدُّ أَمامَهُ ولا يَرى لَهُ نِهايَةً، ويَتَساءَلُ ماذا يَحْدُثُ تَحْتَ الماءِ؟

وكَيْفَ يَعومُ السَّمَكُ دونَ حاجَةٍ لِاسْتِنْشاقِ الهواءِ؟ وما هِيَ أَنْواعُ الكائِناتِ البَحْرِيَّةِ؟ وكَيْفَ تَتَعامَلُ مَعْ بَعْضِها في عالَمِ البِحارِ الواسِعِ؟ وماذا تَأْكُلُ؟ ويَتَخَيَّلُ نَفْسَهُ سَمَكَةً أَوْ كائِنًا بَحْرِيًّا يَعيشُ تَحْتَ الماءِ.. في هَذا البَحْرِ الَّذي لا حُدودَ لَهُ، يَلْعَبُ مَعَ بَقِيَّةِ الأَسْماكِ ويَتَسامَرُ مَعَ البَعْضِ الآخَرِ في حُرِّيَّةٍ تامَّةٍ تَجْعَلُهُ يَفْعَلُ ما يُريدُ وَقْتَما يَشاءُ.

وفي أَحَدِ أَيّامِ الشِّتاءِ، وأَثْناءَ جُلوسِهِ في الحَديقَةِ المُجاوِرَةِ لِمَنْزِلِهِ اسْتَغْرَقَ طَويلًا في أَحْلامِهِ ولَمْ يَشْعُرْ بِمُرورِ الوَقْتِ واقْتِرابِ اللَّيْل. لا شَكَّ أَنَّ والِدَيْهِ قَلِقانِ عَلَيْهِ، فَهُوَ لَمْ يَتَعَوَّدْ على هَذا التَّأْخيرِ خارِجَ المَنْزِلِ، فَهَبَّ واقِفًا وأَسْرَعَ مُتَّجِهًا إلى مَنْزِلِهِ. ولَكِنْ قَبْلَ أَنْ يُغادِرَ الحَديقَةَ تَعَثَّرَتْ قَدَمُهُ في شَيْءٍ صُلْبٍ مَدْفونٍ في الرِّمالِ فَرَكَلَهُ، وما

كادَ يَخْطو بِضْعَ خُطُواتٍ بَعيدًا عَنْهُ حَتّى سَمِعَ صَوْتًا يُناديهِ في ظَلامِ اللَّيْلِ: «يا تامِر.. قِفْ.. إِنّي أُريدُكَ في شَيْءٍ هامٍّ.»

مِنْ أَيْنَ يأْتي هَذا الصَّوْتُ، ولا أَحَدَ في الحَديقَةِ. بَدَأَ الخَوْفُ يَتَسَرَّبُ إلى قَلْبِ تامِر فَتَوَقَّفَ يَبْحَثُ عَنْ مَصْدَرِ الصَّوْتِ، فَسَمِعَهُ يَقولُ: «إِذا أَخْرَجْتَني مِنْ مَحْبِسي سَأُحَقِّقُ لَكَ أَحْلامَكَ.. سَتكونُ طائِرًا ثُمَّ سَمَكَةً.. سَتُحَقِّقُ كُلَّ ما كُنْتَ تَأْمُلُهُ وتَصْبو إِلَيْهِ.»

«ولَكِنْ كَيْفَ أُخْرِجُكَ مِنْ مَحْبِسِكَ؟»

«اقْتَرِبْ وارْفَعْ عَنّي الرِّمالَ.. سَتَجِدُني فانوسًا يَعْلوهُ الصَّدَأُ.. امْسِكْ حَفْنَةً مِنَ الرِّمالِ وادْعَكْني بِها لِأَعودَ إلى لَمَعاني، وخُذْني مَعَكَ إلى مَنْزِلِكَ وضَعْني في مَكانٍ أَمينٍ.

وعِنْدما تُريدُ تَحْقيقَ إِحْدى أُمْنِياتِكَ ادْعَكْني بِحَفْنَةٍ أُخْرى مِنَ الرِّمالِ واطْلُبْ ما تُريدُ.»

وَقَفَ تامِر وقَدْ تَسَمَّرَتْ قَدَماهُ.. هَلْ يَمْضي في طَريقِهِ أَوْ يَفْعَلُ كَما يَقولُ لَهُ الصَّوْتُ؟

إِنَّ زَمَنَ المُعْجِزاتِ قَدْ وَلّى.. ولكِنْ.. ولَكِنْ هَذِهِ فُرْصَتُهُ الوَحيدَةُ والأَخيرَةُ لِتَحْقيقِ ما يَتَمَنّى.

اقْتَرَبَ تامِر مِنَ الفانوسِ، ورَفَعَ عَنْهُ الرِّمالَ، ودَعَكَهُ بِها، وأَخَذَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ ضَمَّهُ إلى صَدْرِهِ ومَضى في طَريقِهِ.



عِنْدَما وَصَلَ تامِر إلى المَنْزِلِ، تَسَلَّلَ إلى حُجْرَتِهِ دونَ أَنْ يَراهُ أَحَدٌ، ثُمَّ أَخْفى الفانوسَ في مَكانٍ أَمينٍ. وما كادَ يَفْعَلُ حَتّى فُتِحَ بابُ الحُجْرَةِ ورَأى والِدَتَهُ تَصيحُ قائِلَةً:

«ما هَذا، يا تامِر؟ ما هَذا؟ لَقَدْ تأَخَّرْتَ كَثيرا.. أَيْنَ كُنْتَ؟»

«مَعْذِرَةً، يا أُمّي، لَقَدْ غَلَبَني النَّوْمُ في الحَديقَةِ ولَمْ أَشْعُرْ بِمُضِيِّ الوَقتِ وحُلولِ اللَّيْلِ.. مَعْذِرَةً مَرَّةً أُخرى.. إِنَّني مُتْعَبٌ.. سَأَغْتَسِلُ وأَذْهَبُ إلى فِراشي.. تُصْبِحينَ على خَيْرٍ.»

وقَبْلَ أَنْ يَنْتَظِرَ إِجابَةَ أُمِّهِ كانَ في طَريقِهِ إلى الحَمّامِ.

لَمْ يَسْتَطِعْ تامِر النَّوْمَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ.. هَلْ ما حَدَثَ حَقيقِيٌّ أَوْ أَنَّهُ حُلْمٌ؟ هَلْ كانَ يَحْلُمُ؟ هَلِ اسْتَغْرَقَ في الخَيالِ إلى هَذا الحَدِّ؟

نَهَضَ تامِر مِنْ فِراشِهِ واتَّجَهَ إلى حَيْثُ أَخْفى الفانوسَ فَوَجَدَهُ في مَكانِهِ.. هَذا لَيْسَ حُلْمًا أَوْ خَيالًا.. إِنَّها الحَقيقَةُ

كامِلَةٌ وجَلِيَّةٌ.. أَخَذَ تامِر يُفَكِّرُ فيما هُوَ فاعِلٌ بِهَذا الفانوسِ حَتّى أَدْرَكَهُ النَّوْمُ ولَمْ يَنْتَبِهْ إلّا عِنْدَ شُروقِ شَمْسِ صَباحِ اليَوْمِ التّالي.

قَرَّرَ تامِر أَنْ يَبْدَأَ المُغامَرَةَ في السَّماءِ أَوَّلًا ثُمَّ في قاعِ البَحْرِ.. نَعَمْ سَيَبْدَأُها مَعَ بِدايَةِ إِجازَةِ فَصْلِ الصَّيْفِ بَعْدَ يَوْمَيْنِ، لا أَكْثَرَ، سَيَبْدَأُ في تَحْقيقِ حُلْمِهِ.

ظَلَّ تامِر يَتَأَكَّدُ مِنْ وُجودِ الفانوسِ في مَكانِهِ كُلَّما انْفَرَدَ بِنَفْسِهِ في حُجْرَتِهِ، يَتَحَسَّسُهُ لِيَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّهُ في المَكانِ المَوْضوعِ فيه.

وفي اليَوْمِ المَوْعودِ، في أَوَّلِ يَوْمٍ في الإِجازَةِ اسْتَيْقَظَ تامِر مُبَكِّرًا، بَلْ نَهَضَ مِنْ فِراشِهِ مُبَكِّرًا لأَنَّهُ لَمْ يَغْمُضْ لَهُ جَفْنٌ طَوالَ اللَّيْلِ.

وذَهَبَ إلى الحَديقَةِ المُجاوِرَةِ، وتَناوَلَ حَفْنَةً مِنَ الرِّمالِ دَعَكَ بِها الفانوسَ، فازْدادَ لَمَعانًا، وسَمِعَ الصَّوْتَ يَسْأَلُهُ:

«ماذا تَطْلُبُ؟»

«أُرِيدُ أَنْ أَكونَ طائِرًا لِمُدَّةِ يَوْمٍ واحِدٍ أُقَرِّرُ بَعْدَهُ إذا كُنْتُ سَأَسْتَمِرُّ أَوْ لا.»

«أَتُرِيدُ أَنْ تَتَحَوَّلَ إلى طائِرٍ الآنَ؟ في الحال؟»

«نَعَمِ الآنَ، ولَكِنْ كَيْفَ سَأَعودُ بَعْدَ ذَلِكَ إلى طَبيعَتي؟

«حَدِّدْ لي مَوْعِدًا لِعَوْدَتِكَ.»

«تَمامَ السّاعَةِ التّاسِعَةِ مَساءً حَتّى لا يَقْلَقَ والِدايَ.»

«إذَنْ أَنْتَ الآنَ طائِرٌ.»

وَجَدَ تامِر نَفْسَهُ طائِرًا أَبْيَضَ صَغيرًا وجَميلًا لَهُ جَناحانِ قَوِيّانِ حَمَلاهُ إلى عَنانِ السَّماءِ.. أَخَذَ يَطيرُ، ويَرْتَفِعُ إلى أَعْلى، ويَنْظُرُ إلى الأَرْضِ البَعيدَة.

المَنازِلُ تَبْدو صَغيرَةً جِدًّا، والنّاسُ كالدُّمى الصَّغيرَةِ، والسَّيّاراتُ والأَشْجارُ.

كانَ سَعيدًا لِلْغايَة.. وظَلَّ يَطيرُ وَيَطيرُ حَتّى أَدْرَكَهُ التَّعَبُ والجوعُ، فَتَوَقَّفَ فَوْقَ شَجَرَةٍ كَبيرَةٍ، كَثيرَةِ الفُروعِ والأَغْصان:



«أَنَّني جائِعٌ.. جائِعٌ جِدًّا، ولَكِنْ كَيْفَ تَحْصُلُ الطُّيورُ على الطَّعامِ، وماذا تَأْكُلُ؟ لَقَدْ نَسيتُ أَنْ أَسْأَلَ الفانوسَ.

سَأَرْتاحُ قَليلًا قَبْلَ أَنْ أُواصِلَ الطَّيرانَ.»

وَقَفَ تامِر العُصْفورُ الصَّغيرُ على غُصْنٍ مِنْ أَغْصانِ الشَّجَرَةِ يَلْتَقِطُ أَنْفاسَهُ ويُفَكِّر فيما حَدَثَ لَهُ:

«إِنَّ السَّماءَ كَبيرَةٌ جِدًّا وواسِعَةٌ. إِنَّني أَشْعُرُ بِالغُرْبَةِ والقَلَق. إِنَّني أَشْعُرُ بِأَنَّني تائِهٌ لا أَجِدُ شَيْئًا ثابِتًا تَحْتَ قَدَمَيَّ مِمّا يُشْعِرُني بِالخَوْفِ.

«إِنَّ المَكانَ الوَحيدَ الَّذي أَشْعُرُ فيهِ بِالارْتِياحِ هُوَ هَذِهِ الشَّجَرَةُ.. هَذِهِ الشَّجَرَةُ لِأَنَّها ثابِتَةٌ عَلى الأَرْضِ.. جُذورُها مُمْتَدَّةٌ مِمّا يُشْعِرُني بِالأَمانِ، سَأُحاوِلُ أَنْ أَهْبِطَ إِلى الأَرْضِ وأَلْتَقِطَ الحَبَّ وبَقايا الطَّعامِ الَّذي تَرَكَهُ النّاسُ.. سَأَمْشي على الأَرْضِ لِأَشْعُرَ بِالأَمانِ.»

نَزَلَ تامِر الطّائِرُ الصَّغيرُ مِنْ على الشَّجَرَةِ إِلى الأرضِ، وأَخَذَ يَلْتَقِطُ ما يَجِدُهُ مِنْ طَعامٍ.. يَقْفِزُ هُنا وهُناكَ حَتّى

شَعَرَ بِالتَّعَبِ فَنامَ على غُصْنِ الشَّجَرَةِ حَتّى اقْتَرَبْ مَوْعِدُ العَوْدَةِ.. في التّاسِعَةِ مَساءً بِالضَّبْطِ كانَ في الحَديقَةِ وفي يَدِهِ الفانوسُ السِّحْرِيّ.

كانَ مُتْعَبًا، فعادَ إلى مَنْزِلِهِ وتَسَلَّلَ إلى حُجْرَتِهِ ووَضَعَ الفانوسَ في مَكانِهِ ونام.. نامَ طَويلًا.. ما أَجْمَلَ أَنْ يَشْعُرَ الإِنْسانُ بِالرّاحَةِ في فِراشِهِ.. ما أَجْمَلَ أَنْ يَعيشَ في مَكانٍ ثابتٍ وآمِنٍ.. ما أَجْملَ أَنْ تكونَ إِنْسانًا.

لَمْ يُرِدْ تامِر أَنْ يَسْتكْمِلَ المُغامَرَةَ ويَبْدَأَ المُغامَرَةَ الثّانِيَة قَبْلَ أَنْ يُمْضي وَقْتًا يَرْتاحُ فيهِ ويُعيدُ التَّفْكيرَ.. قَرَّرَ أَنْ يَبْدَأَ هَذِهِ المُغامَرَةَ عِنْدَ الذَّهابِ إلى شاطِئِ البَحْرِ مَعَ أُسْرَتِهِ في أَوَّلِ الأُسْبوعِ القادِمِ.

اسْتَعَدَّ تامِر لِلسَّفَرِ إلى الإِسْكَنْدَرِيَّةِ مَعَ عائِلَتِهِ، وفي أَوَّلِ يَوْمٍ لَهُ على الشّاطِئِ أَخْرَجَ الفانوسَ مِنَ الحَقيبَةِ الصَّغيرَةِ الَّتي يَحْمِلُها ويَضَعُ فيها بَعْضَ الأَشْياءِ الَّتي يَحْتاجُها على الشّاطِئِ. وفي مَكانٍ مُنْعَزِلٍ أَخْرَجَ الفانوسَ، ودَعَكَهُ بِحَفْنَةِ

مِنْ رِمالِ الشّاطِئِ؛ فَسَأَلَهُ الصَّوْتُ:

«ماذا تَطْلُبُ هَذِهِ المَرَّةَ؟»

«أَطْلُبُ أَنْ أَكونَ سَمَكَةً، ولَكِنْ يَكْفي حَتّى السّاعَةِ السّابِعَةِ فَقَطْ.»

«الآنَ؟»

«نَعَمْ في الحال.»

وَجَدَ تامِر نَفْسَهُ سَمَكَةً صَغيرَةً تَعومُ في البَحْرِ فانْطَلَقَ في حُرِّيَّةٍ وسَعادَةٍ، ولَكِنْ وَجَدَ أَنَّ البَحْرَ بِه الكَثيرُ مِنَ المَخاطِرِ.

سَمَكٌ كَبيرٌ كانَ يُريدُ أَنْ يَفْتَرِسَهَ فكانَ يَهْرُبُ مِنْهُ.. النّاسُ الَّذينَ يَسْبَحونَ كانوا يُريدونَ الإِمْساكَ بِهِ.. كائِناتٌ بَحْرِيَّةٌ غَريبَةُ الشَّكْلِ كانَ يَخافُ مِنْها.

انْحَشَرَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ بَيْنَ الصُّخورِ وخَرَجَ بَعْدَ جُهْدٍ مِنَ الشُّقوقِ الكَثيرَةِ فيها.

كانَ البَحْرُ جَميلًا أَزْرَقَ اللَّوْنِ واسِعًا، مُمْتَدًّا بِلا نِهايَةٍ ولا حُدودٍ.. هَذِهِ المِساحَةُ الشّاسِعَةُ جَعَلَتْ تامِر السَّمَكَةَ الصَّغيرَةَ تَخافُ ولا تَشْعُرُ بِالأَمان.



إِنَّهُ صَغيرٌ جِدًّا في هذا البَحْرِ الواسِعِ.. إِنَّهُ جائعٌ ولا يَجِدُ ما يَسُدُّ بِهِ جَوعَهُ.. إِنَّهُ خائِفٌ، وازْدادَ هَذا الخَوْفُ بِغُروبِ الشَّمْسِ ثُمَّ أَصْبَحَ فَزِعًا عِنْدَما أَسْدَلَ اللَّيْلُ أَسْتارَهُ وسادَ الظَّلامُ.

أَيْنَ يَذْهَبُ؟ وكَيْفَ يَخْتَبِئُ حتى لا تَراهُ الأَسْماكُ الكَبيرَةُ والكائِناتُ المُفْتَرِسَةُ.

بَدَأَ يَرْتَعِدُ ويُفَكِّرُ في طَريقَةٍ لِلْخَلاصِ، ولَكِنَّهُ لِحُسْنِ الحَظِّ لَمْ يَمْكُثْ طَويلًا في هذا الحالِ، فَلَقَدْ حَلَّتِ السّاعَةُ السّابِعَةُ، ووجَدَ نَفْسَهُ على الشّاطِئِ وفي يَدِهِ الفانوس.

وضَعَ تامِر الفانوسَ في الحَقيبَةِ بَيْنَ مُتَعَلِّقاتِهِ الصَّغيرَةِ وذَهَبَ لِلَّحاقِ بِأُسْرتِهِ الَّتي كانَتْ قَلِقَةً عَلَيْهِ.

وطَلَبَ كوبًا مِنَ الماءِ وطَعامًا. وَكانَ لِهذا الطَّعامِ ولِلْماءِ طَعْمٌ آخَرُ لَمْ يَذُقْهُ مِنْ قَبْل.. وكانَ يَشْعُرُ بِالرّاحَةِ والأَمانِ على هَذِهِ الأَرْضِ لِأَنَّها ثابِتَةٌ تَحْتَ قَدَمَيْهِ مِمّا يُشْعِرُهُ بِالرّاحَةِ والأَمان.

ما أَجْمَلَ الشُّعورَ بِأَنَّكَ تَقِفُ على أَرْضٍ ثابِتَةٍ؛ فالسَّماءُ مُعَلَّقَةٌ فَوْقَ الأَرْضِ، والبَحْرُ عَميقٌ تَحْتَ الأَرْضِ، وتَبْقى الأَرْضُ ثابِتَةً.

# لا يَصِحُّ إلّا الصَّحيح

كانَ عادِل مُنْضَبِطًا في كُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ يَسْتَيْقِظُ كُلَّ صَباحٍ في تَمامِ السّاعَةِ السّادِسَة. وبَعْدَ الاغْتِسالِ والصَّلاةِ، وتَناوُلِ طَعامِ الإِفْطارِ يُغادِرُ مَنْزِلَهُ في تَمامِ الثّامِنَةِ صَباحًا ويَكونُ أَوَّلَ مَنْ يَصِلُ إلى الشَّرِكَةِ الَّتي يَعْملُ بِها في تَمامِ الثّامِنَةِ والنِّصْفِ، كَما أَنَّهُ آخِرُ مَنْ يَتْرُكُها في تَمامِ الرّابعَةِ بَعْدَ الظُّهْر.

وكانَ عادِل أَنيقًا، مُهَنْدَمًا، نَظيفًا. هَذا المَظْهَرُ الخارِجِيُّ كانَ يَعْكِسُ صِفاتِهِ الحَسَنَةَ، فكانَ صادِقًا لا يَكْذِبُ، أَمينًا لا يَخونُ، نَشيطًا لا يَتكاسَلُ، عَطوفًا، رَقيقًا، مُحِبًّا لِلْآخَرينَ، مُساعِدًا لَهُمْ.

لِكُلِّ ذَلِكَ كانَ عادِل مَوْضِعَ تَقْديرِ الجَميعِ: رُؤْسائِهِ وزُمَلائِهِ في العَمَل، جيرانِهِ ومَعارِفِهِ، أَقارِبِهِ وأُسْرَتِهِ.

ولَكِنْ حَدَثَ ما بَدَّلَ حَياةَ عادِلٍ وقَلَبَها رَأْسًا على عَقِبٍ، وحَوَّلَهُ إلى إِنْسانٍ آخَرَ مُخْتَلِفٍ تَمامَ الاخْتِلافِ.

كانَ عادِلٍ يَكادُ يَكونُ مُتأَكِّدًا أَنَّهُ سَيَنالُ جائِزَةَ المُوظَّفِ المِثالِيِّ الَّتي تَمْنَحُها الشَّرِكَةُ كُلَّ عامَيْنِ لِأَفْضَلِ مُوَظَّفٍ، ولَمْ يُوَفِّقْهُ الحَظُّ في الحُصولِ عَلَيْها مِنْ قَبْلُ ولا يَعْرِفُ لِذَلِكَ سَبَبًا.. رُبَّما كانَ تَعَنُّتُ المُديرِ السّابِقِ الَّذي كانَ يُعْطيها لِمَنْ يَمْدَحُهُ ويُنافِقُهُ.

ولَكِنِ الآنَ، وبَعْدَ أَنْ تَمَّ تَعْيينُ مُديرٍ جَديدٍ لِلشَّرِكَةِ، فَهُوَ مُتَأَكِّدٌ مِنْ حُصولِهِ على المَبْلَغِ المالِيِّ المُصاحِبِ لِلْجائِزَةِ.

ماذا سَيَفْعَلُ بِهِ؟ هَلْ يُغَيِّرُ سَيّارَتَهُ ويَأْتي بِالسَّيّارَةِ الحَمْراءِ الَّتي يَراها يَوْمِيًّا أَثْناءَ ذَهابِهِ وعَوْدَتِهِ مِنْ عَمَلِهِ ويَحْلُمُ بِاقْتِنائِها؟ هَلْ يُسافِرُ إلى هَذا البَلَدِ الأَجْنَبِيِّ الَّذي كانَ دائِمًا يَتَمَنّى زِيارَتَهُ والَّذي قَرَأَ الكَثيرَ عَنْهُ؟

هَلْ يُغَيِّرُ هَذا المَنْزِلَ الَّذي يَقْطُنُهُ؟ أَوْ يَكْتَفي بِتَجْديدِهِ لِقُرْبِهِ مِنْ مَكانِ عَمَلِهِ؟

هَلْ.. وهَلْ.. وهَلْ..

كانَ عادِل يَعُدُّ ويُحْصي الدَّقائِقَ والسّاعاتِ والأَيّامَ والأَسابيعَ والشُّهورَ على مَوْعِدِ الإعْلانِ عَنِ الفائِزِ بِالجائِزَة.

وكُلَّما اقْتَرَبَ المَوْعِدُ شَعَرَ بِفَرْحَةٍ غامِرَةٍ.. سَيَحْصُلُ أَخيرًا على الجائِزَةِ الَّتي تَمَنّاها طَويلًا.. لَمْ يَكُنْ عادِل يَشُكُّ لَحْظَةً في أَنَّ الجائِزَةَ لِغَيْرِه، فَهُوَ الأَفْضَلُ بِشَهادَةِ الجَميع.. وأَخيرًا جاءَ يَوْمُ الإعْلانِ عَنِ الجائِزَةِ.. ثُمَّ اقْتَرَبَتِ اللَّحْظَةُ الَّتي يَنْتَظِرُها، وتَسارَعَتْ دَقّاتُ قَلْبِهِ وأَعْلَنَ المُديرُ اسْمَ الفائِزِ، إِنَّهُ زَميلُهُ حَمْدي! وسَقَطَ عادِل مَغْشِيًّا عَلَيْهِ ونَقَلوهُ إلى مَنْزِلِهِ في حالَةِ إِعْياءٍ.

لا يَذْكُرُ عادِل كَمْ مِنَ الوَقْتِ ظَلَّ طَريحَ الفِراشِ، فَهُوَ لَمْ يَتْرُكْهُ إِلّا عِنْدَما شَعَرَ بِالجوعِ الشَّديدِ فَقامَ يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ.

قَرَّرَ عادِل العَوْدَةَ إلى العَمَلِ، وحاوَلَ أَنْ يَنْسى ما حَدَثَ ويَتَغَلَّبَ على حُزْنِهِ الشَّديدِ. ولَكِنَّهُ عِنْدَما دَقَّتِ السّاعَةُ السّادِسَةُ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي بَدَلًا مَنْ أَنْ يَتْرُكَ فِراشَهُ

كَعادَتِهِ، قال لِنَفْسِهِ: «لماذا أَسْتَيْقِظُ في السّادِسَةِ؟ ولِماذا أَكونُ أَوَّلَ مَنْ يَصِلُ إلى العَمَلِ وآخِرَ مَنْ يَتْرُكُه؟»

وعِنْدَما ذَهَبَ لِلاغْتِسالِ وارْتِداءِ مَلابِسِهِ لَمْ يَهْتَمَّ بِانْتِقائِها بِعِنايَةٍ كَعادَتِهِ. وذَهَبَ إلى عَمَلِهِ مُتَأَخِّرًا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ وجَلَسَ يَشْرَبُ الشّايَ والقَهْوَةَ ويَتَسامَرُ مَعَ زُمَلائِهِ بَدَلًا مِنَ القِيامِ بِالعَمَلِ المُكَلَّفِ بِهِ. وعِنْدَما سَأَلَهُ المُديرُ عَنْ إِنْجازِهِ بِهَذا العَمَلِ كَذَبَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتِهِ. وكانَ أَوَّلَ مَنْ غادَرَ العَمَلَ في ذَلِكَ اليَوْم.

لَمْ يَعُدْ وَدودًا، عَطوفًا، سَمْحًا، مُجامِلًا، فما فائِدَةُ كُلِّ ذَلِكَ؟ يَتَساوى الجَميعُ، المُخْلِصُ والخائِنُ، الصّادِقُ والكاذِبُ، النَّشيطُ والكَسْلان.. بَلْ إِنَّ الشَّخْصَ الَّذي يَتِمُّ تَكْريمُهُ لَيْسَ بِالضَّرورَةِ أَنْ يَكونَ هُوَ الأَفْضَلَ.

ظَلَّ عادِل على هَذِهِ الحالِ مِمّا أَدْهَشَ كُلَّ مَنْ يَعْرِفُهُ، بَلْ أَدْهَشَهُ هُوَ، فَلَمْ يَعُدْ يَتَعَرَّفُ على نَفْسِهِ، أَصْبَحَ إِنْسانًا آخَرَ.. فَهَلْ هُوَ سَعيدٌ بِذَلِكَ؟ هَلْ هَذا ما يُريدُهُ؟

لَمْ يَنَمْ عادِل هَذِهِ اللَّيْلَةَ ولَمْ يَغْمُضْ لَهُ جَفْنٌ. وبَعْدَ

مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ شَعَرَ بِحَرَكَةٍ في غُرْفَتِهِ ورَأى أَمامَهُ شَخْصًا واقِفًا.. نَظَرَ عادِل إِلَيْهِ ثُمَّ أَضاءَ المِصْباحَ، ووَجَدَ أَمامَهُ عادِل آخَرَ.. فَهَذا الشَّخْصُ يُشْبِهُهُ تَمامًا.. يُشْبِهُهُ إلى دَرَجَةٍ تُثيرُ العَجَبَ.. إِنَّهُ هُوَ.. فبادَرَهُ قائِلًا:

«مَنْ أَنْتَ؟»

«أَنا عادِل القَديمُ الَّذي اهْتَمَّ بِذاتِهِ فَأَحَبَّهُ النّاسُ وقَدَّروهُ.»

«وما فائِدَةُ ذَلِكَ؟»

«أَلا تَشْعُرُ بِاخْتِلافِ مُعامَلَةِ النّاسِ لَكَ وشُعورِهِمْ نَحْوَكَ؟»

«كُلُّ هَذا لا يَهُمّ...»

«هَلْ أَنْتَ راضٍ عَنْ نَفْسِكَ؟»

«رُبَّما.»

«أَمُتَأَكِّدٌ أَنْتَ؟»

«لَمْ يَعُدْ يَهُمُّني أَيُّ شَيْء...»

«اسْمَعْني جَيِّدًا، يا عادِل، واحْفَظْ ما سأَقولُهُ لَكَ:

«لا يَصِحُّ إِلّا الصَّحيحُ؛ ففي هَذِهِ العِبارَةِ سَعادَتُكَ..
تَذَكَّرْ جَيِّدًا: لا يَصِحُّ إِلّا الصَّحيحُ،»

وفَجْأَةً اخْتَفى هَذا الشَّخْصُ الماثِلُ أَمامَهُ ووَجَدَ نَفْسَهُ وَحيدًا في غُرْفَتِهِ.

وعِنْدما دَقَّتِ السّاعَةُ السادِسةُ كانَ عادِل واقِفًا أَمامَ فِراشِهِ، وكانَ أَوَّلَ مَنْ ذَهَبَ إِلى عَمَلِهِ، وكانَ أَنيقًا، مُهَنْدَمًا، نَظيفًا. وعادَ إِلى كُلِّ الصِّفاتِ الحَسَنَةِ الَّتي كانَ يَتَمَتَّعُ بِها وتُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ؛ فَلَقَدْ تَأَكَّدَ أَنَّ الجائِزَةَ الكُبْرى هِيَ أَنْ تكونَ راضِيًا عَنْ نَفْسِكَ وعَنْ ما تَفْعَلُهُ.

# الاخْتِبار

ما هُوَ الاخْتِبارُ الحَقيقِيُّ لِلإنْسانِ؛ هَلْ هُوَ اخْتِبارُ نِهايَةِ العامِ المَدْرَسِيِّ أَوِ الجامِعيِّ؟ هَلْ هُوَ اخْتِبارُ الحُصولِ على وَظيفَةٍ؟ هَلْ هُوَ اخْتِبارٌ يُؤَهِّلُهُ لِشَهادَةٍ ما أَوْ عَمَلٍ أَوْ مَنْصِبٍ؟ لا!

الاخْتِبارُ الحَقيقِيُّ هُوَ الَّذي يَمْتَحِنُ الإِنْسانُ فيهِ نَفْسَهُ.. اخْتِبارُ العالِمِ لِعِلْمِهِ، والتّاجِرِ لِأَمانَتِهِ والحاكِمِ لِعَدْلِهِ.

إذا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ أَكْثَرَ، يا صَديقي، عَنْ هَذِهِ الاخْتِباراتِ فَلْنَقْرَأْ مَعًا هَذِهِ القِصَصَ الثَّلاثَ لِعالِمٍ وتاجِرٍ وحاكِمٍ. لا يَهُمُّ مَنْ هُمْ وما هِيَ أَسْماؤُهُمْ، ولا يَهُمُّ في أَيِّ زَمانٍ أَوْ مَكانٍ كانوا يَعيشونَ، المُهِمُّ أَنْ نَقْتَرِبَ مِنْهُمْ ونَسْمَعَ حِكايَتَهُمْ. كانوا أَصْدِقاءَ ثَلاثَةً تَرْبِطُهُمْ عَلاقَةٌ وَثيقَةٌ مُنْذُ الصِّغَرِ، لَهُمْ نَفْسُ الاهْتِماماتِ، كَثيرًا ما يَتَّفِقونَ وقَليلًا

ما يَخْتَلِفون. وقَرَّرَ الأَصْدِقاءُ الثَّلاثةُ أَنْ يَجْتَمِعوا يَوْمَ الخَميسِ مِنْ كُلِّ أُسْبوعٍ مَهْما كانَتِ انْشِغالاتُهُم، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُحافِظوا عَلى هَذا المَوْعِدِ الأُسْبوعِيِّ، وألّا يَتَخَلَّفوا عَنْهُ إلّا لِلضَّرورَةِ القُصْوى.

ومَرَّتِ الأَعْوامُ وهُمْ يَلْتَقونَ يَوْمَ الخَميسِ مِنْ كُلِّ أُسْبوعٍ، يَتَبادَلونَ الآراءَ والحِكاياتِ والنَّوادِرَ.

كانَ كُلُّ واحِدٍ فيهِمْ ناجِحًا في عَمَلِهِ ومُخْلِصًا لَهُ يَتَفانى في القِيامِ بِهِ حَتّى أَصْبَحَ الأَوَّلُ عالِمًا شَهيرًا والثّاني تاجِرًا ثَرِيًّا، والثّالِثُ حاكِمًا لِلْبِلادِ.

ولَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعْهُمْ مِنَ الاسْتِمْرارِ في لِقائِهِمِ الأُسْبوعِيِّ المُقَدَّسِ بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ.

وذاتَ يَوْمٍ تَخَلَّفَ الثَّلاثَةُ عَنِ المَوْعِدِ وكانَ كُلُّ واحِدٍ يَظُنُّ أَنَّ الآخَرَيْنِ قَدِ الْتَقَيا. وتَكَرَّرَ ذَلِكَ في الأُسْبوعِ الثّاني، وفي الثّالِثِ الْتَقى الثَّلاثَةُ وبادَرَ كُلُّ واحِدٍ بِالاعْتِذارِ عَنْ غِيابِهِ عَنِ المَوْعِدَيْنِ السّابِقَيْن. قالَ العالِم:

«لَمْ أَسْتَطِعِ اللَّحاقَ بِكُما، ولَكِنَّ عِنْدي ما يُبَرِّرُ ذَلِكَ.»

«وأَنا أَيْضًا أَعْتَذِرُ عَنْ غِيابي.»

«وأَنا أَيْضًا.»

ضَحِكَ الثَّلاثَةُ عِنْدَما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَحْضُروا جَميعًا الاجْتِماعَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ تَعاهَدوا عَلى هَذا اللِّقاءِ الأُسْبوعِيِّ.

وبَدَأَ كُلُّ واحِدٍ يَقُصُّ سَبَبَ غِيابِه.

بَدَأَ العالِمُ حَديثَهُ قائِلًا: «مُنْذُ سَنَواتٍ عَديدَةٍ وأَنا أَعْمَلُ لَيْلَ نَهارٍ مِنْ أَجْلِ اكْتِشافِ دَواءٍ يَشْفي مِنَ الأَمْراضِ المُسْتَعْصِيَةِ، وأَحْلُمُ بِاليَوْمِ الَّذي أُعْلِنُ فيهِ هَذا الاكْتِشافَ وأَنْسُبُهُ لِبَلَدي، فَهِيَ الَّتي عَلَّمَتْني في مَدارِسِها وجامِعاتِها.

وبِهَذا الاكْتِشافِ أَسْتَطيعُ أَنْ أَرُدَّ بَعْضَ الدَّيْنِ الَّذي يُطَوِّقُ عُنُقي.

وفي هَذا الأُسْبوعِ الَّذي تَخَلَّفْتُ فيهِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ عَنْ لِقائِنا، وكُنْتُ عَلى وَشْكِ الإِعْلانِ عَنْ هَذا الاكْتِشافِ، جاءَني ضَيْفٌ لِيَزورَني لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ، ولَمْ أَرَهُ مِنْ قَبْلُ، ثُمَّ

تَبَيَّنَ لي مِنَ الحَديثِ مَعَهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ بِأَمْرِ هَذا الاكْتِشافِ، وجاءَ مِنْ دَوْلَةٍ مُجاوِرَةٍ لِيَعْرِضَ عَلَيَّ المالَ الوَفيرَ إذا بِعْتُ لَهُ هَذا الاكْتِشافَ. كانَ المَبْلَغُ الَّذي يَعْرِضُهُ مُغْرِيًا.. كانَ سَيُؤَمِّنُ لي مُسْتَقْبَلي ومُسْتَقْبَلَ أَوْلادي.. كانَ سَيُحَقِّقُ لي الكَثيرَ مِنْ أَحْلامي.. وأَمْضَيْتُ الأُسْبوعَ الثّاني الَّذي تَغَيَّبْتُ فيه عَنِ اللِّقاءِ في التَّفْكيرِ ثُمَّ حَسَمْتُ أَمْري. لَنْ أَبيعَ هَذا الاكْتِشافَ ولَوْ بِمالِ قارونَ، لَنْ أُعْطِيَهُ لِلْغَيْرِ مَهْما كانَ الثَّمَنُ ومَهْما كانَ الإِغْراءُ المُقَدَّمُ. واشْتَرَيْتُ نَفْسي واخْتَرْتُ بَلَدي في النِّهايَةِ.»

وجاءَ الدَّوْرُ على التّاجِرِ لِيُعْلِنَ عَنْ سَبَبِ تَخَلُّفِهِ عَنْ مَوْعِدِ اللِّقاءِ، فَقال:

«تَعَرَّضْتُ في الأُسْبوعِ الأَوَّلِ لِكارِثَةٍ هَزَّتْني بِشِدَّةٍ، فَلَقَدْ غَرِقَتِ المَرْكَبُ المُحَمَّلَةُ بِالبَضائِعِ وخَسِرْتُ مَبالِغَ مالِيَّةً كَبيرَة. وكانَ عَلَيَّ أَنْ أُعَوِّضَ هَذِهِ الخَسارَةَ الفادِحَةَ، وعَرَضَ عَلَيَّ أَحَدُ زُمَلائي التُّجّارِ الحَلَّ وهو أَنْ أَغُشَّ في الميزانِ وأُنْقِصَ مِنْ كَمِّيَّةِ ما أَبيعُهُ مَعَ عَرْضِهِ بِنَفْسِ الثَّمَنِ،

فَبَدَلًا مِنْ أَنْ أَبيعَ كيلو مِنَ الأُرْزِ أَبيعُ كيلو إلّا رُبْعًا بِنَفْسِ الثَّمَنِ، وبَدَلًا مِنْ أَنْ أَبيع لِتْرَ الزَّيْتِ أَبيعُ لِتْرًا إلّا رُبْعًا، وهَكَذا. وظَلِلْتُ أُفَكِّرُ في هَذِهِ الطَّريقَةِ المَضْمونَةِ لِلرِّبْح.

وقَبْلَ لِقائِنا كُنْتُ قَدْ قَرَّرْتُ أَنْ أَشْتَرِيَ نَفْسي وسُمْعَتي بَيْنَ التُّجّارِ وأَسْتَعْوِضَ اللهَ فيما خَسِرْتُ مِنْ مالٍ.»

وأَخيرًا جاءَ الدَّوْرُ عَلى الحاكِمِ لِيَقُصَّ عَلَيْهِما حِكايَتَهُ:

«تَعْرِفانِ أَنَّني أَحْكُمُ هَذِهِ البِلادَ مُنْذُ سَنَواتٍ، وحاوَلْتُ خِلالَ فَتْرَةِ حُكْمي أَنْ أَكونَ عادِلًا، وصادِقًا، وحَكيمًا.

ولَكِنْ عِنْدَما مَرَّتِ البِلادُ خِلالَ هَذا العامِ بِظُروفٍ صَعْبَةٍ تَعْلَماها جَيِّدًا ويَعْلَمُها الجَميعُ، اتَّخَذْتُ بَعْضَ القَراراتِ الَّتي كانَتْ في رَأْيي صائِبَةً ولِلْمَصْلَحَةِ العامَّةِ.

«وانْقَسَمَ النّاسُ، فالبَعْضُ يُؤَيِّدُ هَذِهِ القَراراتِ والبَعْضُ الآخَرُ يُعارِضُها. واشْتَدَّتِ الأَزْمَةُ وبَدَأَ كُلُّ طَرَفٍ يَحْتَكُّ بِالآخَرِ، وكَثُرَتِ المُؤامَراتُ والفِتَنُ، وانْتَشَرَتِ الفَوْضى في البِلادِ. وكُنْتُ أَعْتَقِدُ صادِقًا أَنَّ الحَسْمَ والعُنْفَ والقُوَّةَ هي السَّبيلُ لِلْخَلاصِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ حَتّى يَعودَ الاسْتِقْرارُ

لِلْبِلادِ؛ فَسَجَنْتُ مَنْ سَجَنْتُ مِنَ المُعارِضينَ، وحارَبْتُ مَنْ حارَبْتُ.. ولَكِنَّ الأَزْمَةَ اشْتَدَّتْ كَما تَعْلَمانِ في الأُسْبوعِ الأَوَّلِ الَّذي لَمْ أَحْضُرْ فيهِ اجْتِماعَنا.. وكُنْتُ في الأُسْبوعِ الثّاني أُفَكِّرُ فيما أَفْعَلُ: أُضاعِفُ القَمْعَ والعُنْفَ وخاصَّةً أَنَّ هُناكَ مَنْ يُؤَيِّدُني ويَشُدُّ مِنْ أَزْري أَمْ أَتراجَعُ؟

«ولَكِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ سَبيلٌ لِلتَّراجُعِ كانَ عَلَيَّ أَنْ أَخْتارَ بَيْنَ مَصْلَحَةِ الوَطَنِ ومَصْلَحَتي، وتَغَلَّبَتِ الأولى عَلى الثّانِيَةِ، وقَرَّرْتُ ما سَوْفَ أُعْلِنُ لَكُما قَبْلَ أَنْ يُذاعَ عَلى النّاسِ غَدًا: سَأَتْرُكُ مَنْصِبي لآخَرَ يَخْتارُهُ النّاسُ لِيُخْرِجَ البِلادَ مِنْ هَذِهِ الأَزْمَةِ الطّاحِنَةِ.»

صاحَ الثَّلاثَةُ في صَوْتٍ واحِدٍ: «لَقَدْ نَجَحْنا في الاخْتِبار.»

قالَ العالِمُ: «كانَ اخْتِباري في مَدى حُبّي وانْتِمائي لِبَلَدي.»

وقالَ التّاجِرُ: «كانَ اخْتِباري لِاحْترامي لِنَفْسي وحِفاظي على سُمْعَتي.»

وقالَ الحاكِمُ: «أَمّا أَنا فَكانَ اخْتِياري في حُبّي لِوَطَني ولِشَعْبي ولِنَفسي أَيْضًا.»

كانَتْ هَذِهِ يا أَصْدِقائي هِيَ الاخْتِياراتِ الثَّلاثَةَ لِلنَّفْسِ البَشَرِيَّةِ.. كانَتْ صَعْبَةً ولَكِنَّها كُلِّلَتْ بِالنَّجاح.

**الينابيع** تَتفجَّر من التُّراث العربيِّ الأصيل، ومِنَ السِّيرِ الشَّعبيَّةِ الغَنيَّةِ، ومِنَ الحِكاياتِ الشَّعبيةِ العَربيَّةِ؛ لِتُصوِّرَ نماذجَ مُضيئةً مِن تُراثِنا، وتعرِض قِيمًا مُشرقةً في حياتِنا: تَمزج بينَ الجِدِّ، والفُكاهةِ في لُغةٍ هادِئةٍ راقيةٍ: لا تعلو فتعوق القارئ وتصدّه ولا تسفُّ فتهبط بذوقِه ومستواه، وإنما تمتِّع وجدانَه وقلبه، وتُثري فِكرَه وعقلَه.

**الينابيع**

١ـ سيف الإحسان وقصص أخرى
٢ـ حبات العقد وقصص أخرى
٣ـ الباحث عن الحظ وقصص أخرى
٤ـ مشورة قصير وقصص أخرى
٥ـ الشعرة الذهبية وقصص أخرى
٦ـ عنترة بن شداد: مولد البطل
٧ـ عنترة بن شداد: عبلة والصبي المقاتل
٨ـ عنترة بن شداد: السيف والكلمات
٩ـ عنترة بن شداد: يوم عنترة
١٠ـ رحلة السندباد المجهولة
١١ـ مزحة صيف وقصص أخرى
١٢ـ الدهان السحري وقصص أخرى
١٣ـ كرسي السلطان
١٤ـ بدر البدور
١٥ـ حكاية الفتى العربي وقصص أخرى
١٦ـ قوت القلوب
١٧ـ الخاتم السحري
١٨ـ بائع السعادة وقصص أخرى
١٩ـ رجع بخفي حنين وقصص أخرى
٢٠ـ العطار والعقد وقصص أخرى
٢١ـ نسمة الربيع
٢٢ـ مرآة الخير وقصص أخرى
٢٣ـ سر الجدة ومعركة طبيب
٢٤ـ أميرة الحسن والجمال
٢٥ـ من ألاعيب هلال
٢٦ـ ذو الإصبع وبناته
٢٧ـ وليمة الأسد
٢٨ـ سباق بين غرابين
٢٩ـ جزاء الإحسان

مكتبة لبنان ناشرون
زقاق البلاط ص.ب: ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

